يهدد العدم الوجود في ثلاثة ميادين شخصية وفقاً للمفكر المسيحي الوجودي بول تيليك. يعرض السيد تيليك في كتابه The Courage To Be القلق الوجودي الذي يفتك بالنفوس ويقدّم الشجاعة لإثبات الذات (أو إقرار الذات) وسيلةً لمجابهة ذاك القلق. يبدأ في عرض تجليات الشجاعة أخلاقياً ووجودياً وفقاً لبعض الفلاسفة بدءً من أفلاطون وتوما الأكويني مروراً بسبينوزا وصولاً إلى نيتشة. ثم ينتقل إلى أنواع المخاطر الوجودية التي يلوّح بها العدم، يواصل الحديث عن الشجاعة الوجودية بين التفرد وكالجزء من الجمع، وينتهي بتقبّل المطلق ومفهومه عن إلهٍ ينبع منه الوجود بكُليته.

قد لا يهم الكلام الفلسفي الكثيرين ولا يفقهه حتى من قد يهتم به، هذه المقالة ليست لمراجعة الكتاب، لكن ما أود فعله هو التمحيص في أحد فصول الكتاب المذكور كي أحاول إسقاطه على واقعنا الثقافي المعاصر وثم لأشذّب ما لا يتفق واستخلص ما أظنّه أحد المفاتيح الفلسفية لفتح الكثير من الأقفال الفكرية في فهم أنفسنا، أقفال تأصد الأبواب وتمنعنا من فهم العلل لنكتفي بالجدال حول المكشوف من أعراضها.

في الفصل الثاني من الكتاب يعرض السيد تيليك مفهوم الشجاعة بأنه إثبات الذات رغماً عمّا يهددها من عدم. الميادين الثلاثة التي يتعرض لها الوجود لهذا التهديد هي أولاً الميدان الوجودي بذاته، أي، التهديد الذي نهابه بإدراك حقيقة الفناء الجسدي: الموت. يهددنا الموت بشكلٍ مطلق وبصورة لا مفرّ منها. هذا التهديد المطلق يندرج أسفله تهديد نسبي ألا وهو تهديد القدر وما يحمله لنا من مجهول مجبورٍ علينا رغماً عن أنوفنا. لا يأتي القلق من الموت الذي لا سلطة لنا عليه فحسب بل من المخبوء من نوائبٍ أيضاً. لكنه تهديدٌ نسبي، إذ أن القدر فيه الخير والشر أما الموت بإطلاقه يعني انعدام الذات الجسدية كلياً. من الاصطلاح ذاته ندرك أن الانعدام لا يتعدد. حتى مع تلك الراحة المرتبطة بالوجود الأخروي في التصور الديني لا يمكننا إنكار رهبة الموت الجسدي. إذاً يؤرق وجودنا - وفقاً للسيد تيليك- التهديد المطلق للموت والتهديد النسبي للقدر.

الميدان الثاني الذي يواجه فيه العدم وجودنا هو الميدان الروحي، ذاك الجانب الإبداعي الخالص في الشخصيات الموهوبة والذي لا يقتصر عليهم بل نجده جميعاً في حياتنا اليومية حيث نبدع في أصغر التفاصيل والإنجازات الشخصية وحتى في تعدد طرق تعبيرنا عن أنفسنا بالكلمات. تعكس العلاقة الإبداعية بالتفاصيل اليومية أو بالاكتشافات العظيمة الجانبَ الروحي في الذوات البشرية. حياتنا لا تقتصر على أجسادنا ومحاولة إشباع الغرائز بل نسمو لما فوق ذلك. لكن العدم يتربص بالذات كلها ولا يستثني الجانب الروحي من قبضته العدمية. ما يحيط بنا هنا هو التهديد المطلق لفقدان الحياة معناها برُمّتها. فقدان المركز الروحي للذات أو ذاك المعنى الذي يعطي الحياة اليومية طعمها لتفقد كل الملذات وتصير التجارب غير مرضية. هذا التهديد بفقدان المعنى المطلق يصحب معه التهديد النسبي للشعور بالخواء. قد لا يفقد الكون والكيان معناه لكن ذلك الروتين أو تلك العادة أو الفكرة المعتادة تفقد قيمتها فنشعر بالخواء التام أثناء إنجاز المهام. والمفارقة هنا عندما يصل التهديد المطلق لفقدان المعنى أشدّه قد يرمي المرء ذاته الجسدية لعدم قدرته على مواجهة حياة لا معنى فيها.

ثالثاً نتهدد في الميدان الأخلاقي، الحاجة لإثبات ذواتنا أخلاقياً تواجه الخطر المتجلي في التهديد المباشر للإدانة بأفعال ليست أخلاقية. يحاسب كل امرئٍ نفسه عما صنع وما يصنع من ذاته، وفي المجال الأخلاقي ما اقترفت وتقترف يداه. الشعور بالتقصير الأخلاقي يؤرق الشخص في حياته ويتضاعف حتماً مع الإيمان بيوم حسابٍ مطلق منوط به مصيرٌ أزلي. ذاك يعني أن الانعدام الجسدي لا ينفي خطر الإدانة الأبدية. لا مفر من هذا التهديد بالانتحار مثلاً. التهديد هنا هو التهديد المطلق للإدانة ويصحبه التهديد النسبي للذنوب. الذنوب الأخلاقية التي قد تحكم النفس بها على ذاتها بسبب بهتان الخطوط بين الخير والشر في تعقيدات هذه الحياة.

هذه الأخطار الوجودية تتقاطع وتختلط ولا تتواجد على حِدا حتى وإن تضخم إحداها على حساب الأخريات. لا يقتصر هذا التقاطع على المستوى الشخصي بل يُقسّم السيد تيليك تاريخ الحضارة الغربية وفقاً لأولوية تلك الأخطار في خواتيم ثلاث حِقب. في العصور القديمة المتأخرة هيمن التهديد المطلق للموت والنسبي للقدر الذي تقف خلفه الحروب والتوسعات الرومانية والتقلبات من الجمهورية إلى الإمبراطورية وما إلى ذلك من تزعزع. لم تخلُ تلك الحقبة من تهديد فقدان المعنى أو التهديدات الأخلاقية، متمثلة بالشكوكية، لكنها تتسم بالثانوية. إلى أن تغلغلت الرسالة اليهودية-المسيحية في الحضارة الغربية ليفضي البُعد الأخلاقي إلى مساحة كافية ويصبح التهديد المطلق بالإدانة والنسبي للذنوب هو ما يؤرق المضاجع كافّةً. الخشية من غضب الرب والتضرع له في شتى الطرق، مثل الحج إلى المناطق المقدسة والتزهد المبالَغ به في بعض الأحيان. ويشير السيد تيليك إلى اتحاد شخصيتي الموت والشيطان في المخيلة الفنية والوجدانية لتلك العصور، وقد انعكس ذلك في اللوحات والأشعار والخطب الدينية. وفقاً للسيد تيليك لم ينل الشك بالمعنى على الصعيد الوجودي بعد، وهذا أمرٌ متوقع مع وجودٍ مركزٍ روحيٍ يريح اليقين، لكنه أطل برأسه في بعض اللحظات، في

إعادة إحياء الفلسفة الشكوكية في عصر النهضة وفي بعض الأعمال مثل لوحة الأنبياء والنبيات لمايكل أنجيلو ومسرحية هاملت لشكسبير. أو في جدالات مارتن لوثر مع الشيطان. الجدالات اللاحقة مع أفول ما يعرف بالعصور الوسطى في مرحلة التنوير بين المفكرين والمؤسسات الدينية وثم ما جاء من نمو الليبرالية والديمقراطية وسطوة الثورة الصناعية، كل ذلك جعل من فقدان المعنى التهديد الأكثر وضوحاً في عصرنا الحالي أي في نهاية الحقبة الثالثة. ما يهددنا اليوم هو انعدام تلك الأرضية الروحية التي قد تعطي الحياة المعنى. [ولا عجب في نشوء الفلسفة الوجودية فور إدراك العقول الفذة إرهاصات العدمية].

قبل ختام المقدمة والدخول في صلب المقال لنأخذ كلام السيد تيليك عن حالة اليأس الوجودية التي قد يصلها الإنسان عندما تنتصر المخاطر المذكورة في تأزيم وعيه، اليأس وفقدان الأمل بأي مستقبل ممكن هي حالة متطرفة على حدود الوجود لكنها لا تستطيع سحق الوجود كلياً، اليأس يعني وجود شخصٍ يائس، أي أن هناك شذرات من وجودٍ تواجه العدم وحَسبُها بقاؤها.

أوجه القلق الوجودي حولنا

وجه الموت

لنأخذ هذا التشخيص للقلق الوجودي ونفحص ما ينطبق منه على الإنسان العربي المعاصر. بدايةً بالتهديد المطلق للموت والنسبي للقدر. أما التهديد المطلق للموت فهو تهديدٌ يحيط بالبشرية جمعاء، تهديدٌ بخطرٍ لا مناص منه في أي أراضي هذه البسيطة. يمكننا التفريق المباشر بين المجتمعات العربية الواقعة في ظروفٍ متطرفة من العنف تجبرها على التحديق في أعين الموت يومياً، دولٌ مُحتلّة مثل فلسطين والعراق وأخرى في حروب مدمرة أو على شفا حفرةٍ منها مثل سوريا واليمن وليبيا أو لبنان. الموت من تعريفه ليس حالةً يمكن "التعايش" معها. المساواة بين الحروب على اختلاف ظروفها يعاني من خلل تحليلي إن لم يكن أخلاقي أيضاً. ربما عانت كل تلك المجموعات من رؤية نفسها توضع على موازين الدم في أعين مجتمعات عربية أخرى تكاد لا تفقه ما تعني الحروب. لن أخوض في الجوانب السياسية من الصراعات الكارثية التي أجبرت كل هذه الدول بطريقة أو بأخرى للمراهنة يومياً على وجودها أو تقسيمها بسبب تلك الجوانب. لكن يمكننا رؤية التوق إلى الحياة بين الأنقاض والمساحات بين القضبان. الروح المقاتلة تتغنى في ظاهرها بالشهادة وتتحلى بالصلابة لا حبّاً بحياة مليئة بالقتال والتضحيات التي لا تنضب وتتغلغل في أبسط التفاصيل اليومية بل لأن القتال تحت وطأة الاستعمار فريضة في سبيل النجاة والهدف هو إبقاء وجود يكتنفه ما يكفي من الكرامة لا البقاء من أجل البقاء فقط. فلو كان البقاء من أجل بقاء هَمُّ المقاومين لخنعوا. النجاة من الموت الجمعي يطلب التضحيات على كل الأصعدة لكنها تضحيات تتأتى لاستحضار واقع لا حاجة للتضحيات فيه. أما القول بتلذذٍ بالموت فهو قول العدو الساعي لنزع إنسانيتنا ليبرر فتكه بنا.

هذا كله ينطبق على حالات متطرفة من عنف لا يدوم، وأعني عدم دوامها بأكثر من صورة. أما الحروب الأهلية والثورات فهي لشذوذها في العلاقات الداخلية بين أبناء الدولة الواحدة، في العادة لا تستمر لأكثر من عقدٍ أو عقدين من الاصطدام المباشر سواء انتهت بتسوية أو تفرقة. حالة الاستعمار المختلفة في المجمل حالة تختلف في العديد من المقاييس وكان وما زال من المؤسف المبالغة في التشبيهات إثر الربيع العربي بين هاتين الحالتين. لكن حتى في حالة الاستعمار والقهر المتضاعف والتباين الواضح بين طبقات بينها اختلافات تنزع الإنسانية كلياً من الطبقة الأضعف منها، حتى في تلك الحالة الشاذة تاريخياً والتي تنتهي دوماً إما باندحار للمستعمر أو انصياعٍ من المستعمَر عندما يؤمن أنه امتداد لمن استعمَرَه. المعارك المباشرة والثورات التحريرية أيضاً هي حالات استثنائية زمنياً ولا تمتد على طول مدد الاستعمار التي قد تتجاوز القرن. يمكننا استخلاص الكثير من توليفة هذه الحقائق لكن في سياقنا هذا تكفينا الدلالة على أن التهديد المطلق للموت يمنع البشر (سواءً أولئك الساعين لقهر الآخرين أو لتحرير أنفسهم أو حتى لتطبيق عقائدهم الدينية أو السياسية) من اصطدامٍ مستدام غير منقطع.

ماذا عن التهديد النسبي للقدر؟ هنا لا يسعنا إلا ملاحظة البون الشاسع بين علاقة العربي والغربي مع تهديدات القدر، وهو ليس بالغريب نظراً لاختلاف النظرة الفكرية والدينية لهذا المفهوم. المراحل التي سبقت العصور القديمة المتأخرة كانت إغريقية-رومانية وكانت الآلهة حينئذ تمتاز بما يكفي من الخصائص البشرية التي أعطت القدر نزعة إنسانية، كأن الآلهة تقدر على التلاعب بالإنسان

دون نظامٍ محكم أو علاقة واضحة. كما أنها تنازعت فيما بينها مما عنى أن مُسيري القدر لم يتفقوا أصلاً. الخوف من تقلبات القدر كانت تُترجم في القصص الشخصية أيضاً، سقراط كان يبحث عن شخصٍ أكثر حكمةً منه لأنه إحدى الوسيطات الروحية في ديلفي قالت أنه الأكثر حكمة ويبدأ قدر أوديب بالتحقق بمحاولة والده الهرب من نبوءة. لا تقتصر سطوة القدر على الفكر الإغريقي بل تُرى في الكثير من المعتقدات الوثنية، الإلهة النرويجية فريغ والدة بالدور تحلم بوفاة ابنها مما يُنذر بحربٍ عظيمة بين الآلهة وأعدائهم. تحاول فريغ منع ذلك بأخذ عهدٍ من كل المخلوقات على عدم إيذاء ابنها لكن نبتة الهدال لا تقطع ذلك العهد ويستغل لوكي هذا لتدبير فخٍ ينال به من بالدور. لنا أن نتخيل إدراك الوثني لطبيعة القدر عندما تكون الآلهة نفسها غير قادرة على إيقافه.

في الفكر الإغريقي تميزت المدرسة الرواقية والتي ذكرها السيد تيليك في مطلع الكتاب للحديث عن شجاعتها في تقبّل القدر. واصفاً إياها بالبديل لما تقدمه المسيحية على هذا الصعيد. الصبر الرواقي أو إن أردنا بديلاً له في ديانة إبراهيمية -مع عدم إنكار الفروق الفكرية- يمكننا الإشارة إلى صبر أيوب في العهد القديم. حيث يتقمص الإله الواحد التجبّر والعشوائية الظاهرية للآلهة الوثنية.

التصور الإسلامي-المسيحي للخالق يختلف اختلافاً جذرياً عن التصور الوثني، وحدوية الإله بذاتها صفة تقلل من العشوائية والتخبط في التعامل مع البشرية. في الانتقال من العهد القديم إلى الحديث نجد في المسيحية الخالق بين البشر يعاني من أجلهم، مقدماً تضحية تغسل الخطايا من بينهم لا كأنها هِبةٌ من فوقهم. في الإسلام يؤمر المسلم بتقبّل القدر خيره وشرّه بالشكر والصبر تبعاً للإيمان بحكمة إله واحد عادل.

هذا التصور الإسلامي-المسيحي المختلف لطبيعة الإله والقدر يعني تعاطياً مختلفاً مع مجريات الدهر وما تحمله الأيام. لا يعني الأمر تصالحاً كاملاً في الوضع البشري لكن الوضع المثالي المطلوب من الفرد هو الإيمان بإلهٍ حكيم وبحكمة في ثنايا كل الأحداث وخصوصاً في تلك المريبة أو الصعبة أو الكارثية. هذا التقبل والصبر الأيوبي يساعد على طمس التهديد النسبي للقدر مقارنة بالوثنية ولدرجة كبيرة. لكننا للأسف نجد على أطرافه عيباً في التعاطي مع الكثير من المشاكل التي نواجهها، سواء على الصعيد الشخصي أو الجماعي. الإيمان بأن كل شيء يأتي بحكمة ينفي عند البعض النية على دراسة الأسباب الدنيوية كما يساهم في تقبّل خسائر لا يتقبلها الأفراد في المجتمعات التي لا تحمل هذه الدرجة من الإيمان بالحكمة المغروسة في القدر. خذ أي خطأ طبي أو تقصير حكومي والألم الجسدي أو النفسي الناتج عنه، الغضب البشري الطبيعي عند خسارة شخصٍ عزيزٍ أو فقد الأملاك يُلجَم مباشرة بالاطمئنان لوجود حكمة، لا داعي لمحاسبة الواقفين وراء ستار الأخطاء الكارثية وحتى إن صدحت الحناجر بتلك المحاسبة تبقى القدرة على الطمئنة باللجوء إلى حكمة ما ورائية تثبط العزيمة في السعي وراء تلك المحاسبة.

عند فشل البنية التحتية أو غرق الأطفال لعدم وجود إشارات تحذيرية، تصب المياه على نيران غضب الوالدين المبرر بأن ما حصل كان من المُقدّر. لنا أن نتساءل ما إن كان ظاهر تقبل القدر هو تقبل يرشح للأعماق أم أن غيظاً يُدفن في الصدور أو في إحدى زوايا اللاوعي منتظرةً متنفساً آخراً أو تقولب نفسهاً لتقطر في عادات وإيحاءات سلبية-عدوانية. لندع هذه المسألة لمقالة أخرى أما هنا يكفي الإشارة إلى ما يسمحه هذا الصبر من تجاوزٍ وما يعطيه من هامش التقصير وما يمكن تقبله من عبثية إيماناً بأنه تسيير.

الإدانة الأخلاقية لدواعي مادية

ماذا عن مفاهيم المسلمين حول التهديد المطلق للإدانة والنسبي للذنوب؟ يكثر علماء الدين المسلمين الحديث عن الحلال والحرام وعن الحلول الطوباوية التي تنزل من السماء لحظة تطبيق "النظام الإسلامي" سواء السياسي أو الاقتصادي. إثر ذلك لا تقتصر الخشية من الذنوب على خشية من فشل أخلاقي، هناك تبعات مادية على أرض الواقع. هذه التبعات أيضاً لا تقتصر على الفرد بل هي جمعية حيث قد يطبق الشخص ما يراه أخلاقاً حسنة لكن مساعيه تفشل لأنه محاطٌ بالعُصاة والفسقة.

لذلك يطبق أمر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لغايات دنيوية وبأساليب دنيئة. لتلك الغايات يلام الشعب على المعاصي التي يقترفها تعليقاً على كوارث لا شأن لها بتلك المعاصي بحد ذاتها أو لإزاحة اللوم عن فساد حكومي. كأن المعصية أي معصية تصبُّ في حوضٍ من الشر المجرد ليفيض هذا الشر بعد حينٍ أو ليتبخر وتمطر الشرور علينا أجمعين. وبالتأكيد لن يدعو خطيب جمعةٍ إلى

حلول أكاديمية اجتماعية علمانية ولا يعقل أن نتخيل رجل دين يدعو إلى ترك الفرائض لكن التذكير بتلك الفرائض في سياقاتٍ لا شأن لها بها يدلنا على ارتباط المفاهيم الأخلاقية بالمادية.

الشعور بالذنب والقلق الوجودي من الإدانة لا يقتصر على بعدٍ أخلاقي إذ قد تحول إلى اعتبار مادي يدخل في الحسابات المادية الأخرى وفي معظم الأحيان يشوشها ويشوهها. من هذا المنظور لا تتطلب الخسارة في معركة مراجعة استراتيجية وتكتيكية لنكتشف ما إن كان العيب في قلة الإمدادات فهو بالتأكيد نتج عن قلة الركعات. كما ربط السيد تيليك بين التهديدات في الحقب الغربية المختلفة نستطيع رؤية الارتباط بين تصوّر القدر والحكمة الكامنة في كل شيء، هذا الرابط العجيب يأتي على صورة قفزة عن الخطوات المباشرة لعلاج المشاكل. أي بدلاً من أن نواجه المشكلة بذاتها نترفع عنها ونحاول الذهاب إلى الإله الذي سيحل المشكلة لو طبقنا الشعائر. القلق الظاهري هو القلق من القصور الأخلاقي لتبعاته المادية لا لما يعنيه من تقصيرٍ قِيمي. ولا أرى تفسيراً آخر لسذاجة بعض رجال الدين عندما يفرحون أو يشمتون بخسارة المسلم العلماني بمعركة ما، وثم يتخطى الكثير من رجال الدين في العادة أي تفسير مادي وتحضير مادي منطقي للمواجهات ويكتفون بالاعتقاد بأن الإله هو سلاح دمار شامل يمكنك الاستعانة به إذا تحجبت جميع النساء وصلى جميع الرجال.

تتردد الاستنتاجات من تلك الخطب على ألسنة معظم الناس وتعطيهم حلاً يبدو في ظاهره كاملاً متكاملاً لكنه لا يقضي تماماً على حالة القلق الناتجة من تبعات الأوضاع المزرية الجمعية على كل فردٍ فينا. على أرض الواقع بعد ترديد تلك الشعارات والأماني التي لا أشكك أبداً بصدق نيتها في العودة إلى تاريخ ذهبي، يعود الشخص إلى حياته اليومية متململاً من الأحوال دون تطبيق حقيقي لما سمع. لو أكملت الفقرات التالية بالحديث عن تطبيق صحيح فلن يأتي طرحي هنا بأي جديد فهي أيضاً من حركات الخفة التي تتحايل على العباد لتطلب منهم المثالية، هذه الدعوات التي تربى آخر جيل أو جيلين عليها انتهت صلاحية كل مكوناتها للأسف. أُدركُ أن الدعاوى الدينية لا تكتفي بمطالبة بالشعائر بل تشير إلى قيم أخلاقية مثل الصدق والأمانة. المزيد من المثالية النافعة لخطبة جمعة لكن بعد انتهائها وبعد القيام والاصطفاف والتسليم والتزاحم (أو على الأقل ما كان تزاحماً قبل الوباء) يخرج الناس إلى الواقع. القيم أو الشعائر المطلوبة في هذا الحل تُلخص بمفهوم التطبيق الصحيح للإسلام. ولا ضير في ذلك إلا أن هذا المفهوم ليس بالوضوح المزعوم. هناك إشكالات لوجستية لا شأن لها بالقيم، هناك قواعد اجتماعية وسنن وضعها الله ولا تتبدل فقط لأن أحد الأقوام يظنون أن الكرامات تأتي جماعية.

القلق المتولد من الأوضاع الكارثية حرفياً في بعض الدول الإسلامية أو مجازياً في أخرى، اقتصادياً أو حقوقياً، والخوف من التقصير الأخلاقي فيه شرخٌ بالكاد ينكَر ولكن بالكاد حقاً يُنظَر. أتحدث عن المفارقة بين العيب وبين الحرام. بكلمات أخرى الفرق بين الحرام اجتماعياً والحرام دينياً.

انتقالاً من الغايات الدنيوية إلى الأساليب الدنيئة، الشكوى من الابتعاد عن الدين والأخلاق عند الكثيرين من المعلقين على مواقع التواصل الاجتماعي تأتي بفظاظة لا يمكن وصفها بالأخلاقية. تتم المرافعة والمدافعة عن الدين بالشتائم. هذا لا يتوقف على فريق دون فريق لكن المدعي بوقوفه في صف أخلاق دينية يجب أن يتناسب طرحه مع محتواه بينما لا غصاصة عند المطالب بحرية التعبير بأن يعبّر بكل حرية. هذه الوقاحة لا تقتصر على العامة، أذكر الكثير من خطب الجمعة حيث وَجّه الخطيب إصبعه بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر نحو المصلين أنفسهم بشتى الاتهامات اللا أخلاقية، مثلاً كانت بعض الخطب عن الحجاب وتحذير المصلين بتقاعسهم لأن النساء من أقاربهن كاسيات عاريات وكما ذكرتُ قبل قليل يأتي التحذير من عواقب مجتمعية دنيوية، عبر ربط أوضاع المسلمين المتردية بعدم تطبيق هذه الفريضة. لعل أوضح مثال على هذه الأداة الوعظية المعتمدة على إهانة المستمع وإحراجه هي تلك الحادثة في الجامعة الأردنية حيث طلب أستاذ الشريعة أمجد قورشة من أحد الطلاب رقم هاتف أخته كي يتصل بها الشباب في المحاضرة، الهدف هو أن يحرجه بعدما قال الشاب بأن لا ضير في جلوس الطلاب الذكور والإناث مع بعضهم في الجامعة لوحدهم. الحجة هنا وبهذه الصورة تهديد يعتمد على إقصاء مجتمعي والإحراج لا على إقناع الطالب نفسه بقبح الفعل، هذا إن افترضنا قبح الفعل أصلاً.

هذا النوع من الوعظ والتلويح بالنبذ وإهانة الشرف يدل على الخلط بين الحرام الاجتماعي والحرام الديني. من هنا نبدأ بملاحظة ملامح نوعٍ مختلفٍ من القلق، نوع لا نرى نظيراً له في نموذج السيد تيليك عن الحضارة الغربية. لا أنفي وجود مفهوم العيب الاجتماعي في الدول الغربية وهنالك لهم تقاليدهم وتيارات محافظة وما إلى ذلك لكنها ناتجة عن متغيرات مختلفة. ما يهمنا هو العيوب الاجتماعية الناتجة من بيئتنا، البيئة العشائرية. قبل أن يتسرّع المثالي بالدعوة إلى تركها ويهرع إلى كلمة السر "التطبيق الصحيح للإسلام" عليه أن يعترف متأخراً بأن الواقع بحاجة إلى تحليلٍ واقعي لا هروب مثالي. وأن ذاك التطبيق الصحيح يتطلب هذه الواقعية في ترتيب الخطوات للوصول إلى مُناه. لنتتبع إذاً خطوات في اتجاهٍ آخر بدايةً بما حاول الأستاذ فعله بإهانة "شرف" الطالب.

---- الفقرات التالية منشورة بتصرّف في موقع جدلية---

الشرف في أقاصي الأرض

في الشرق على الجزيرة اليابانية كان المقاتلون المعروفون بالساموراي يتبعون البوشيدو، ميثاق أخلاقي وطريقة للحياة. على الساموراي الامتثال للقيم مثل الصدق والتفاني واتخاذ أسلم القرارات واللباقة وغيرها. كانت الطبقات المقاتلة في الكثير من الحضارات تمتثل لبعض قواعد الفروسية والشجاعة ولكن ما يميز الساموراي هو ما يعرف باسم هارا كيري. انتحار عن طريق بقر البطن من اليسار إلى اليمين. في أولى الممارسات لهذا التقليد كان محصوراً على الساموراي وكانت الخطوة التالية من الآلية المؤلمة هي إخراج الخنجر أو السيف القصير المستخدم من البطن بعد قطعه وطعن الساموراي نفسه في رقبته أو السقوط من وضعية القيام على النصل الموجه نحو قلبه. لاحقاً دخل دور ثانوي، كايشاكونين، وهو رجل يقطع رأس الساموراي لتهوين الاحتضار.

هذا الانتحار الذي أصبح عادةً لها طقوسُها ولم يعد يقتصر على الساموراي لاحقاً، كان لغسل العار عن النفس أو العائلة. إذا خسر الساموراي المعركة قد يقدم على الانتحار كي لا يقع في الأسر، أو ليمسح عار الخسارة وكان في بعض الحالات يُجبر على الساموراي كأنه نوعٌ من أنواع الإعدام، إذا ارتكب جرائم مثل السرقة والاغتصاب. لكن ذلك لا يُسقط بالضرورة تبعات العار عن عائلته.

من أشهر الأمثلة على الهاراكيري هو انتحار الكاتب يوكيو ميشيما بعد فشل محاولته افتعال انقلاب عسكري في اليابان. ملاحظة أخيرة عن الهاراكيري هو أشعار الموت التي كتبها أولئك المقدمون على هذا الفعل. هذا الصنف من الأشعار لم يقتصر على الهاراكيري، يمكن اعتبارها رسالة انتحار شعرية.

أما في الغرب لعبت المبارزات دور الدفاع عن الشرف. لم يكن الهدف منها قتل الآخر بقدر ما كان إبراز الشجاعة على التضحية في سبيل صون الشرف من الشخص الذي أهانه بطريقة أو بأخرى. على الرغم من المحاولات القانونية لإيقاف هذه الممارسة لكنها بدأت منذ العصور القديمة ولم تنحسر حتى أواخر القرن العشرين. المبارزة كانت باستخدام السيوف ولاحقاً المسدسات. نسخة رياضية منها لحقت الأولمبياد في مطلع القرن الحادي والعشرين.

من أكثر المبارزات شهرةً هي تلك الواقعة بين ألكسندر هاميلتون أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة وهارون بَرَّ نائب الرئيس الأمريكي حينها. أصيب هاميلتون في تلك المبارزة وفقد حياته بعدها، في عزائه قدّم القس والعالم إليفاليت نوت نعياً يذم فيه ممارسة المبارزة لأنها تقوّض أسس المجتمع المدني وتخطف المواهب الشابة وتدمر السعادة المجتمعية. هذه الخطبة ساهمت هي وغيرها من فعاليات لجمعيات مكرسة لإنهاء هذه الممارسة بالنجاح في المبارزة ضد المبارزات، أخيراً أصبح الأمر القانوني بمنع المبارزات واقعاً.

قبل أن نعود لالتقاء الشرق والغرب في الشرق الأوسط لنحمل معنا نقطتين من أقاصي الأرض لنبحث عما اعتقده أفضل تجلي للشرف. مفهوم ال"مانا" الموجود في تاهيتي وهاواي وعند قبائل الماوري، السكان الأصليين في ما يعرف بنيوزيلاندا اليوم. المانا جزء من نظرة شاملة للعالم لذا لا يجوز اختزالها لمفهوم الشرف لكنها في سياقها المجتمعي قريبة منه. المانا هي طاقة روحية قد

تفقدها أو تكسبها وفق الأفعال وهي طاقة تعكس السلطة والكرامة والسخاء ومكانة الفرد أو القبيلة. هذا التجسيد للمكانة المجتمعية قد يفيدنا في إدراك الحجم الذي يأخذه الشرف في مجتمعاتنا.

أولاً لنلاحظ اتفاق الأطراف على تعريض النفس للخطر والتضحية في سبيل الدفاع عن الشرف وأهمية ذاك الشرف في المجتمع، ثانياً أن ذلك لم يكن بين الطبقات الفقيرة أو من يتسم بالهمجية الفكرية أي أنه ليس أمراً يمكن تفسيره بالطبقية المالية. بل نجد مَن هم في أعلى المراتب في الدولة يتبارزون أو أفراد الطبقة المحاربة وهي من أقوى الطبقات في المجتمع تَعرض حياتها في سبيل الحفاظ على شرفها.

ارتبط الشرف في الأعراف الاجتماعية بمكانة الشخص وعائلته في أعين المجتمع، النبلاء والمحاربون بسلطاتهم العسكرية والاقتصادية هم أولى الناس بالدفاع عن تلك المكانة. هذا المفهوم لم يكن غريباً البتة عن القبائل العربية بل نجده، كما أزعم في هذه المقالة، في مركز العلاقات بين القبائل وبين الأفراد أنفسهم. هذا الزعم لا يبتعد كثيراً عن المتعارف عليه من مركزية العائلة والقبيلة في المجتمعات العربية. هو أمرٌ يتفاخر به العرب في العادة بأكثر من صورة ويعيب المجتمعات الغربية مثلاً على عدم معرفة المرء لجده العاشر. لكنني أنوي النظر إلى الجوانب المظلمة من المركزية القِبلية في الطريق المتعرجة العائدة للاتصال مع مقدمة المقالة عن التهديد الوجودي.

التفاخر بالأنساب وتفاخر الشعراء العرب بأنفسهم لا يحتاج إلى الكثير من الشرح فهو حاضرٌ إلى اليوم في الوعي الجمعي. سطوة العشائرية على كل الجوانب المجتمعية في معظم الدول العربية أمرٌ يذكر بشكل اعتيادي، عادة في محل الذم والقدح لتخلفه عن المدنية. لكنه ذمٌ بالألسنة أما فعلياً نجد تلك الروابط بمتانة لا يبدو أنها ستتزعزع قريباً. حتى ومع الاتفاق الشفهي على ضرورة سيادة القانون فوق تلك الاعتبارات ما زالت السلوكيات المجتمعية تعتمد على هذه التجمعات الفرعية سواء بصورتها القبلية أو العائلية. إضافةً إلى ذلك هناك خوف من فقدان هذا الود وتلك الأواصر. أما الخطوة القادمة فهي مرتبطة بالشرف أو بالأحرى بتلك الجريمة الهجينة المعروفة بجريمة الشرف.

المفارقة البارزة بين جريمة الشرف والمبارزة هي طبيعة الخصومة على مستويين، الأول هو المستوى بين المبارزين، في المبارزات الغربية يقف الرجلان اللذان اتفقا على تلك المبارزة بعد تعرض أحدهم لشرف الآخر. يعرض الرجل نفسه للخطر ليدافع عن شرفه. أما في جرائم الشرف لا يتبارز الرجل مع الرجل الذي يعتقد أنه دنّس شرف عائلته بل يتخاصم الأخ أو الأب مع الأخت أو الابنة. لا داعي للإطالة في ذم ما هو مذموم من إيذاء من لا يستطيع الدفاع عن نفسه وما هو منكر في الطبيعة البشرية من ارتكاب جريمة القتل بحق أقرب الناس.

لا تفسير هنا لتلك الجريمة لكننا قد نجد تفسيراً لظاهرة ثانية وهي استخدام الشتائم المهينة للشرف بدلاً من الشخص ذاته كنوعٍ من التحدي الاجتماعي. في معظم الأحيان تعتبر تلك الشتائم استفزازاً لأجل عراكٍ أو لاستدراج الخصم، بدلاً من مبارزة بالسيوف والمسدسات تكفي الأيادي. لو اقتربنا أكثر من تلك الشجارات سنجد اختلافاً ثقافياً آخر في طبيعة العراك بالأيدي، في الضربات عشوائية وفي الشجار نوعاً من الاعتماد على الآخرين بالانضمام إما لتكبر حلبة القتال أو للفض بين المتعاركين. أما في الشجارات الغربية تكون الضربات مركزة أكثر للإيذاء لا بتلك العشوائية وبدلاً من الانضمام للقتال أو إنهائه يكتفي المارّة بمتابعة الحدث. عدم التركيز على الأذية المباشرة قد يشير إلى سذاجة قتالية في المجتمع أو إلى أمرٍ آخر ألا وهو أن هذه الشجارات السريعة والفجائية لا تنشب أصلاً من أجل أذية مبالغٍ بها بل لرد السمعة والحفاظ على الشرف أو لإهانة شرف الخصم. أي أن المبارز إن صحّت تسميته بذلك يسعى لإثبات جرأته على الدفاع عن شرفه. لا أدري ما هو أسوأ، الشجارات التي لا تترك أضراراً جسدية بالغة لسلميتها النسبية وما يعني ذلك من فشل في مغزى الشجار أم الشجارات التي قد تؤدي للوفاة بشراستها والتي تسفر عن ضحايا لأسخف الأسباب.

المستوى الثاني هو أن الشرف في منظور المحاربين والنبلاء كان بمثابة الهالة الاجتماعية حول السلطة العسكرية أو الاقتصادية، امتدادٌ للقوة والقدرة على الهيمنة أو الدفاع عن مكانة وأملاك. هذا الجانب ليس غريباً على القبائل التي اعتبرت الشرف يعني قدرتها على الدفاع ضد القبائل الأخرى وضمّت تحت جناحه مفاهيم مثل المروءة وإكرام الضيف وما يشابهها مما يرفع من قيمة المانا عند

قبائل الماوري. الغريب هو أن المجتمعات التي اتجهت نحو المدنية وفي طريقها هناك لفظت الظواهر التقليدية للحفاظ على الشرف بجانبه السلطوي، فهي لم تُفقِد تلك السلطات لدى السياسيين في الغرب، تستطيع شتم سياسي غربي لكن ذلك لا يعني نزع سلطته السياسية (وهذا يضع علامة استفهام على علاقة حرية التعبير بالسلطة) أو في الشرق تخلّت كلياً عن الطبقة المحاربة.

الشرف والقرف: جرائم السمعة

في المثالين المذكورين من المبارزة أو الهاراكيري لا نجد مرادفاً لجرائم الشرف، هذه الجرائم بحاجة إلى دراسة أكثر دقة، كيف تشكلت وتطورت هذه الظاهرة وما تخبرنا عن ظواهر أخرى قد لا تكون بفظاعتها لكنها في نفس السلسلة من المفاهيم الهجينة أو المتخلفة زمنياً وأخلاقياً. لا هالة من سلطة من أي نوع تنتج عن ارتكاب عائلة جريمة بحق أحد أفرادها. سأتخطي السطحية عند بعض النسويات في التعجب من مفهوم الشرف بكليته. فلنعتبر أن الجريمة تأديبية بقصد منع العلاقات الجنسية لكننا ومع ذلك لا يمكننا تجاوز غرابة عقاب أحد شركاء الجريمة دون الآخر. ولو أخذنا أمثلة المبارزة وإسقاطها على العوام من شجارات بالأيادي والأسلحة البيضاء فإننا ما زلنا بعيدين كل البعد عن تفسير توجيه الضربة لامرأة فقط مع ترك الرجل الذي عرّض الشرف للخطر. كما أننا لا نستطيع وضع هذه الجريمة كأنها وليدة لحاجة القبائل الدفاع عن نفسها ضد القبائل الأخرى فهو في السابق دفاعٌ بنية حماية نساء القبيلة. فإذا كانت الفتاة هي شرف العائلة كيف نفسّر قتلها للحفاظ عليه؟

إن لم تكن الفتاة هي الشرف ولم يعد الدفاع عنها وعن سلامتها هو الشرف، وإن لم يكن دعوة المعتدي على الشرف إلى مبارزة شريفة لا لغاية قتاله بالضرورة بقدر ما هي لغاية إثبات الرجل في أي عائلة أنه مستعد للدفاع عن شرفه. فما الحاصل حقاً في مثل هذه الجرائم؟ من المغري أن نعزو ذلك إلى وحشية كامنة في البشرية، ذلك في بعض الأحيان يفسر فظاعة الاعتداء على الإناث مثل حالة الزوجة التي فقأ زوجها اللعين عينيها.

في بعض الحوادث التي يبالغ فيها الذكور في التعنيف بدلاً من القتل المباشر لا بد من الحديث فعلاً عن الاختلال الأخلاقي والخلل البشري المسبب لذلك، لكن جرائم "الشرف" في الكثير من الأحيان تكون مباشرة وبقصد القتل. هذا لا يقلل من الوحشية لكنه يضعها في فئة مختلفة، فإن لم تكن الوحشية تفسر تلك الجرائم، محاولتي لتفسير الفعل من تلك الطرق محاولة موعودة بالفشل من مطلعها لأن ذلك يجمعها مع جرائم مختلفة ومتباينة. الآن وبسبب قبح الجريمة على الكثير من الأصعدة الأخلاقية والبشرية سأعاين رَدَتي فعلٍ استهجنتهم، سأفعل ذلك في سبيل تمييز تضاريس صورة أكبر تضع هذه الجرائم دون غيرها في مكانها المميز. أول ردٍ يأتي بصورة تبريرية بالإشارة لتلك الفورة الذكورية واعتبار ما حصل ابتلاء للأخ والأب. لا داعي لإضاعة الوقت في تفنيد هذه السخافة لكن هذا التصور لحالة المجرم يرشدنا إلى طبيعة إدراكه لما وقع، حالة التأهب العدائي المرتبطة بتلك الفورة قريبة جداً إن لم تكن هي نفسها حالة التأهب في نظرية السايكولوجية لاستجابة الكر والفر. تلك الدرجة من التوتر والعصبية والحاجة للاختيار السريع بين القتال أو الهرب من الموقف عند مواجهة خطيرة في نظر الشخص. وهي تضخم للهيجان الواقع عندما يشتم الشخص في عرضه على الملأ. [حتى وإن لم تكن الإهانة بالشتيمة الموجهة للشرف، فإنني أجد المفكرين والمثقفين أنفسهم يسعون لتبادل الإهانات الشخصية، لكنها منمقة بما فيه الكفاية لتخفي حقيقتها بأنها شخصية لا فكرية، وأن القصد هو الاستفزاز لا المحاججة، ولا يخلو تاريخ الجدل من مفكرين يطعنون شخصيات بعضهم لكن الاكتفاء بذلك أو المبالغة فيه دون الرد على الفِكر وإنصافه هو ما يميّز "المثقفين" في عصرنا.]

ما هو هذا الخطر الذي يراه هذا المجرم عند النظر إلى أقرب الأقارب؟ الكثير من جرائم الشرف لا تحصل ردة فعلٍ مباشرة على الإمساك بالفتاة وهي تمارس الجنس. ما الذي يروّع المجرم لدرجة الإقدام على قتل أقرب أقاربه إذاً؟ لو صحّ استنتاجنا بأن المسألة لم تعد ترتبط بالشرف، لا بمعناه النبيل وتلك الهالة السلطوية ولا بمعناه القبلي وتلك الحالة الدفاعية عن نساء القبيلة ولو حاولنا إحضار أقرب الأمثلة لتلك الحالة من العصبية سنجد جرائم الشغف. الخيانة هنا هي ليست خيانة زوجية بل خيانة الفتاة، في نظر

المجرم، للعائلة. لكن ما الذي فرطت به الضحية حقاً من حق العائلة كي يراها المجرم كأنها خائنة؟ ليست الأملاك بل على أغلب الظن كان صديقها أو عشيقها يحاول إثبات مشاعره بإهدائها الهدايا. لا يسعني إلا الاعتقاد بأن ما فعلته الضحية هو خيانة سمعة العائلة أمام العائلات في المجتمع.

في المجتمعات ذو الطابع القبلي هناك سلطة اجتماعية للسمعة وكل قبيلة لها محصلة من تلك السمعة عليها الحفاظ عليها. مانا بدوية لا ماورية. استخدامي لكلمة السمعة مقصودة للتفريق بينها وبين مفهوم الشرف الذي اعتبره عريقاً وذو أصلٍ نبيل. وهو اختيار لا يقتصر على ذلك بل يفتح أمامنا بوابة تفسيرات للكثير من الظواهر الأخرى في تلك السلسلة الهجينة التي ذكرتها سلفاً. السمعة التي خانتها الضحية هي بحد ذاتها أحد الأملاك المعنوية للعائلة. ما زلنا في حالة الإقرار التام لفظاعة هذه الجرائم وحتى الآن وحتى وإن اختلف القارئ معي في بعض الارتباطات أظنه سيتفق معي بقباحة جرائم الشرف، وأظن أنه كما أفعل أنا، ننأى بأنفسنا عن هذه القباحة المنافية للفطرة البشرية المحبة لأفراد العائلة السوية. لكنني أخشى من أن أدخله معي بعد مروري عبر تلك البوابة لاكتشف أننا كلنا شركاء في جريمة نقترفها جمعياً بحق أنفسنا.

دعوني أعود إلى رد الفعل الآخر الذي استهجنته بعدما قتل أحدهم ابنته وشرب الشاي فوق جثتها. هذه الجريمة يندى لها جبين أي والدٍ سوي ويجب أن تلقى نكراناً تلقائي من أي سامعٍ لهذا الخبر الفظيع. لكن أحد الردود الغريبة كانت الإسراع للتذكير بأهمية الوالد في المجتمع. ربما كان ذلك في خضم الدفاع عن الآباء بسبب ردود فعل النسويات بمهاجمة المجتمع "الأبوي". لكن ما هذه الأولوية عند تفشي ظاهرة تنحصر فيها دائرة الضحايا على البنات؟ وهي كما ذكرنا سابقاً لا تمتد حتى للأبناء من العوائل الأخرى المشتركين في علاقة ربما لم تصل لمرحلة جسدية أو جنسية، ولا أجد داعياً للدفاع عن الآباء عند ذكر جرائم الشرف فهي جرائم لا تسفر أبداً عن مقتلهم. جرائم الشرف تتميز عن كل الجرائم بحصرية الضحية على جنس دون الآخر. نرى في تلك الردود على هجمات النسويات انقلاباً كاملاً لمفهوم الشرف القبلي القائم على دفاع الذكور عن الإناث، ما نجده هو دفاع من إناث عن الآباء والإخوة بينما كان الأصل في مفهوم الشرف أن يدافع ذكور القبيلة عن إناثها. نحن ما زلنا إذاً بعيدين كل البعد عن الشرف بمعانيه النبيلة ولكننا قريبين كل القرب من مفهوم السمعة. يرى أولئك المسرعون للدفاع عن الآباء بعد جريمة لا شأن لها بالأبوّة أن سمعة الآباء أولوية والدفاع عنها ضروري حتى قبل أن تجف دماء الضحية. هذا الدفاع المستميت عن السمعة وتلك الفورة كما لو أن الفتاة خائنة، وخيانتها كانت خيانة لسمعة العائلة تضع هذه الجرائم والتي سأسميها بعد هذه النقطة جرائم السمعة لا جرائم الشرف، في موقع يمكن تفسيره دون أي نية أو حاجة لتبرير هذا الجرائم القبيحة.

في الهاراكيري يضحي الرجل بنفسه وفي المبارزات يعرّض نفسه لخطر التضحية للدفاع عن شرفه، في هذه الجرائم تُقدّم الفتاة كأنها أضحية في سبيل كيانٍ ما. لا يعقل أن يكون إله المسلمين وليس هو الشرف كما وضحنا. يمكن القول بأنها جريمة لاستعادة المانا المفقودة. هي السمعة والسمعة لا توجد دون مستمعين، أي دون عوائل أخرى في المجتمع ينظرون بدونية إلى العائلة التي لا تسعى بجدية للحفاظ على سمعتها. نحن لا نتحدث عن سلطة عسكرية أو اقتصادية لنبيل أو محارب بل لمكانة العائلة في المجتمع. فقط قبولها في المجتمع القبلي يتطلب قرابين بشرية. عبر هذا الطريق أعتقد أن الأمور تتضح أكثر فأكثر، وقبل الابتعاد عن المثال الدامي والمتطرف لمحاولة الحفاظ على السمعة سأنهي هذا الجزء ببعض التعليقات السريعة على جرائم السمعة.

أولاً لا تنفع بعض المبالغات النسوية بتصوير كل الذكور بأنهم مجرمون لكن الفرصة لم تتح لهم الفتك ببناتهم وأخواتهم، ولا أعني بهذا رفض التعميم أو تبرئة الذكور من العدائية المصبوبة في كيانهم سواء بيولوجياً أو اجتماعياً لكن المبالغة ستشوش فهم جرائم السمعة. هناك جوانب اقتصادية مرتبطة بهذه الجرائم وأخرى ترتبط في البيئات المحيطة بتلك العائلات التي ترتكب مثل تلك الجرائم. لا أظن أن كل فتاة تعتقد حقاً أن أخاها أو أباها لديهما القدرة على إيذائها دون أي دلائل مسبقة على ذلك. في المقابل والأهم من الرد على الأقلية النسوية هو التوجه بالحديث إلى أولئك الرجال، عريضو المناكب غليظو الشوارب، المعتقدين بأنهم يدافعون عن المجتمع بالشجار الإلكتروني مع فتيات بالعادة يصغرنهم عمراً وحتماً حجماً. إلى أولئك الظانين بأنهم حماة الشرف دون التنبه لانقلاب تام لمعنى الشرف في حماية نساء القبيلة. فإذا كانت الفتاة هي شرف العائلة كيف نفسّر قتلها للحفاظ عليه؟

تخاف النساء في المجتمع الشرقي من الخروج دون التعرض للتحرش، ويقول لهم الذكور بأن الذنب ذنبهم إن حصل ذلك، ألا يعني ذلك أننا لو اعتبرنا المجتمع قبيلة كبيرة فهي أكبر قبيلة عديمة الشرف؟ حيث لا تشعر نساؤها بالأمن فيها؟ ما زالت هذه المجتمعات في العقلية القبلية حتى وإن ارتدت زي المدنية. وهي ليست قبيلة واحدة بل عدة قبائل أقرب إلى كونهم في حالة هدنة طويلة الأمد من أبناء دولة أو أقارب دم. هدنة مهددة بالاختفاء لحظياً دون اكتراثٍ بمفهوم الدولة. لهذا السبب تماماً يشعر الرجال في هذه المجتمعات بتلك الفورة وتلك الحاجة لحماية النسوة، عفواً، لحماية السمعة. لأنهم يدركون أن الرجال في الخارج ليسوا أبناء سواسية للدولة ولا هم أبناء عمومة في قبيلة واحدة، هم أعداء محتملون. بدلاً من أن يتفق الذكور على تنظيمٍ يسمح للنساء بالتنقل بشكلٍ طبيعي يعادون بعضهم وبدلاً من المحاولات غير المعقولة في الحماية من كل الأعداء المحتملين بوضع الحِمل على الإناث بمنعهم من التحرك بأريحية الذكور. معظم السجالات في هذا الموضوع هي على مستوى معين تشير إلى مشاكل بين القبلية والمدنية، بين اعتبار نفسك في دولة وكل من حولك مواطنين وبين اعتبار نفسك في قبيلة وكل من حولك قبائل معادية.

أخيراً، الكلمات الموجهة لمن يكمن نية إيذاء ابنته أو أخته إن دنست سمعة العائلة لن تصل إذ لا أظن أنهم من قراء هذه المقالة. لكن لنفترض أن أحدهم يقرأ ويصل إلى هذه النقطة وهو يهزّ رأسه منكراً علي ما قُلت. لن أسأله للتخلي عن أي مفاهيمه، حتى لو أقرّ بأنها السمعة وليس الشرف وأنه يفعل ذلك كي تحافظ العائلة على مكانتها في مجتمع قبلي. كل ما أطلبه منه هو أن يضحي بنفسه ليغسل العار إن كان صادقاً في احترامه للشرف. إن كانت الهاراكيري عظيمة عليه وعلى شرفه ليكتفي ببتر أحد أطرافه، أو قطع إصبعٍ واحدٍ على الأقل. وبدلاً من أن ننتظر حتى تختفي القبلية من المجتمع دعونا نعتبر هذا الفعل وسام شرفٍ مجتمعي. وبما أن كل فعلٍ اجتماعي يقع في نسيجٍ من التوقعات والمعتقدات لنا أن نتخيل اختلاف المعاملة بين الوالد وابنته، فهو بدلاً من أن يعاملها كأنها ضحية محتملة سيحسن لها كي لا تضعه في موقفٍ يشوّه فيه نفسه.

حسناً ربما أخذ الجانب الروائي راحته في الفقرة السابقة، عودةً لموضوع السمعة علينا ألا نفصل بين هذه العقلية الإجرامية وبين النسيج المجتمعي ولا ينسينا التركيز على الجرائم الفظيعة من إدراك درجات الظلم الأقل شدة ولكنها ربما الأكثر تدميراً للمجتمع. ذاك الأخ الذي يضمر نية القتل في حالة الفضيحة لا ينظر إلى أخته بصورة سوية ولا شك بأن النظرة هذه ستبرز في مواقف مختلفة تُشعر المرأة بالإهانة والرهبة. ثم أن النساء الخائفات من الأهالي لا يمتنعن عن العلاقات بل يخوضونها سراً، وتتبوأ الفتاة في مثل هذه العلاقات درجة أدنى من شريكها القادر على ابتزازها بطرقٍ ذو مسربٍ واحد، أي بلا قدرة منها على رد الابتزاز. حتى لو نشر مقطع فيديو يظهر فيه فهي ستكون المتهمة بينما يُنسى تماماً أو لا يُسأل من هو أصلاً.

التهديد المطلق للموت في جريمة السمعة يحيط الكثير من تفاصيل الحياة. حتى في العلاقات مع شباب لا يقدمون على إيذاء الفتاة بسبب السلطة التي يتقلدونها تلقائياً تتشوه العلاقة بذاتها بسبب السرية، حتى لو صدقت نية الطرفين وحتى لو كانا ينويان الزواج بالحلال بعد التأكد من توافق شخصي وامتنعا عن أي اتصال جسدي. على أي حال المقالة ليست عن العلاقات لذا لنكتفي بهذا القدر ونسعى في طريقٍ آخر بما يخص هذا الكيان المجتمعي المعروف بالسمعة.

السمعة بصفتها كياناً مُهَدِداً

هاراكيري لطبقة الطلبة

قبل سنوات حين كانت العلامات التامة في التوجيهي ضرباً من الخيال، ومع أنها أصبحت لسبب أو لآخر ممكنة ما زال للتوجيهي رهبة في نفوس معظم الطلاب. رهبة تدفع في بعض السنوات طلاباً إلى الانتحار إن لم ينجحوا أو يحصلوا على علامة كافية. لا شك بأن التوجيهي سنة تحدد مسار الحياة العملية أو على الأقل هذا ما يؤمن به طالب التوجيهي وما يدفعه المجتمع للتصديق به. لا يملك الطالب في معظم الأحيان الخيارات في ذلك المسار بعد حصوله على النتيجة. تتأتى مباشرة التفاصيل في هذه الظاهرة من انتحار، أو التضحية بالجسد، لسبب يتخطى السبب الظاهري، أي الفشل في الحصول على العلامات المرتقبة. ما أزعم وقوعه على أرض

الواقع من سطح العمارة هو بمثابة هاراكيري توجيهي، الطالب يضحي بنفسه غسلاً للعار الشخصي والتبعات المخزية لمقابلة مجتمع يُشعره بأن حياته تتوقف، حرفياً، على تلك العلامات.

لو كنا نعيش في مجتمع صناعيٍ محبٍ للإتقان لكان تشخيصي خاطئاً لكننا في مجتمع يصدّر المختصين بل يبني توقعاته الاقتصادية على تصديرهم، ولا يكترث بإنتاج خبراء لفائدة مباشرة محلية. الطالب إذاً لم يرتكب خيانة لوطنه تستحق هذه الحركة القاتلة. لنا أن نحزن على أولئك المراهقين الذين فقدناهم في وقت مبكر من أعمارهم فقط لأننا أثقلناهم بتوقعات وأقلقناهم. قلقٌ أدى إلى إفناء الجسد ظناً بأن الحياة مع تلك النتيجة أقسى من أن تعاش. قلقٌ وجودي إن صح التعبير. في نعي هاميلتون قُدِحَ سبب موته، ألا يستحق شبابنا نعياً نقدح فيه الهاراكيري التوجيهية؟

وكما عدنا سريعاً من تطرف جريمة السمعة لِنَمُرَّ على الخلل المجتمعي وسموم العلاقات السرية فلنعد أيضاً بسرعة من تطرف الانتحار للإشارة إلى الضغوط النفسية التي تجعل طالب التوجيهي قَلِق أَرق. يبالغ في دراسة للحصول على علامة لا لفهم المواد ثم يختار له الآخرون تخصصه. حتى وإن ظن أنه اختاره بكامل الحرية علينا أن نتساءل عن سطوة السمعة على قراراته، وعلى قراراتنا جميعاً بعد التذكير بشبه انعدام الحرية الفردية عند أهم مفاصل الحياة في هذا المجتمع. ماذا عن تلك الآثار المترجمة إلى لؤم بعض الطلبة في إخفاء جهودهم الدراسية أمام بعضهم، وتلك الحاجة الماسّة للغش أو شراء الأسئلة أو تسريبها كأن أسئلة وزارة هي أسئلة حساب يوم القيامة. وكيف لنا أن نستغرب من حالة الإشباع من خريجين في تخصصات مثل الطب والهندسة وما يليها من فقدان هذه الوظائف لقيمتها، وفي المقابل كيف تتركز أهمية السمعة ويصبح أصحاب تلك الوظائف وخصوصاً الطبية يتعاملون مع المجتمع بفوقية ويبكون عندما يتعرضون لمشاكل تتعرض لها كل الوظائف فقط لأنهم يؤمنون بأنهم طبقة متعالية عن سائر القوم.

المانا والمكانة

بدأ يتكشف ضعف الخيوط في النسيج المجتمعي القِبلي المعاصر على ما أعتقد، أحد العيوب الناخرة لهذه الخيوط هي الجانب الآخر من أحد مكامن القوة المحتفى بها. أقصد هنا العائلة (الممتدة لا النووية). فور الحديث عن القبلية أو العشائرية نسمع ذماً لظاهرة الواسطة وآثارها السلبية. لو كان الهاراكيري التوجيهي أو المبارزة بين أخٍ متوحش وأختٍ لا حول لها وأغلب الظن أنها بلا ذنب أصلاً هما النهاياتان الفظيعتان لخيطين ممتدين من أعطال اجتماعية مركزها السمعة والقلق إزاء خسارة ذاك المركز فما هو امتداد خيط الواسطة؟

لو أخذنا بعين الاعتبار أصل السمعة ألا وهو الشرف المتصل بالسلطة سنجد وراثة الحكم هي أعلى التجليات، أن يرث المرء إمبراطورية أو خلافةً برمتها. لقد كان الإمبراطور أو الخليفة يبذل كل جهد ممكن لتوسيع رقعة دولته والحفاظ عليها كما يسحق الثورات داخلها ويحارب المؤامرات بين حاشيته، وليس من الغريب أن نفوس الحاشية تمتلئ بالحسد أو الغبطة لذاك الإمبراطور أو الخليفة وأننا نجد في تلك الدوائر اقتتالاً عائلياً داخلياً واتفاقاً بينهم على الحفاظ على مكانة العائلة ظاهرياً. يحكم الإمبراطور أو الخليفة بالسيف ويحافظ على سلطته بالسيف ولكن لا بد له من الاستعانة بعائلاتٍ أخرى سواء لقدراتها العسكرية (وهنا ندرك أهمية الطبقة المحاربة) أو المادية. هالة السلطة، أي الشرف، هي مهمة للإمبراطور أو الخليفة بأهمية القوة والمادة، فهي تثني أولئك الثوار المزعجين المحتملين وتجعل الرعايا يطمئنون للقبوع تحت عائلة إمبراطورية عظيمة. للحفاظ على تلك الهالة يجب إثباتها للرعايا دورياً ورمزياً.

بعد تلمس الطريق تاريخياً فلنكتشف لماذا ننزعج كل الانزعاج من تمظهراته في عصرنا. أكثر المظاهر المزعجة في ظاهرة الواسطة هي الواسطة في القطاع الحكومي والمناصب الرفيعة. توريث وزارات وتعيين الأقارب للتحكم في مسائل تمس الجميع. لقد كان كل هذا مفروضاً مسبقاً بالطبقات الأرستقراطية أو المحاربة لأنها كانت قادرة على الحفاظ على مكانتها بالدرع والدرهم كما أنها كانت تتحمل تبعات فشل الأفراد من المجموعة. كان فشل العائلة النبيلة أو الحاكمة في الحفاظ على مكانتها أو أملاكها مباشراً ومؤلماً لها وربما عانى الرعايا بدرجة أقل من تلك الخسارة فهم ينتقلون أحياناً بسلامةٍ كالقطيع إلى أسيادٍ جدد.

هذا لا يترادف في المجتمع مدني مع حالة توريث المناصب الحكومية إذ ندرك تماماً أن الفشل في الإدارة الحكومية يؤلم الرعايا بالدرجة الأولى وفي أغلب الأحيان بشكل حصري بينما يتمكن السيد الوزاري من الخروج بسلامة مالية من منصبه وربما يجلس على عرشٍ منصبي آخر. هنا أيضاً نتلمس الفارق بين المفهوم التقليدي للشرف والمفهوم المعاصر للسمعة. هذا الفارق يفسر اختلاف صورة الدفاع عن تلك المناصب، يكتفي المسؤول أو الطبقة أياً كانت بالدفاع عن السمعة بقضايا التشهير أو بالتهديد المباشر للمنتقدين بصورة غير قانونية لكنه لا يدافع عن الشرف بإثبات استحقاقه للمنصب كما يفعل الأسياد والملوك. عندما ينهي مسيرته الحقائبية يخرج بجيوبٍ مليئة بالمال مقابل إفلاسٍ في المانا. كم شخصية حكومية في العقود الأخيرة حظت بأي احترامٍ خارج عوائلها والمنتفعين منها؟

علينا ألا نترك الانتقاد ناقصاً بالتركيز على الجانب السياسي من الواسطة، ودعونا نترك النفاق بذم الواسطة ورقياً دون التصريح بأننا مذنبون به في الكثير من مناحي الحياة. الفقرات التالية لن تسلك المنهج الخطابي الفارغ والمعهود عند الحديث عن الواسطة بل سأسعى لوضع حدٍ فاصل بين أنواع من الواسطة فهي ظاهرة تستحق التمحيص وخصوصاً في سياق المقالة.

أعتقد أن التفريق بين الشرف والسمعة والتركيز على جوهر الاستحقاق يؤدي مباشرة إلى التفريق بين الواسطة في الشؤون الحكومية والعامة وبين الشؤون الخاصة. عندما تفشل الحكومة في عملها تتضرر الدولة بأكملها لكن عندما تفلس الشركة يتضرر ملاكها وموظفوها فقط. لذا يصح التفريق بين المخاطر المترتبة على الاستهتار في القرارات في القطاعين، القطاع الحكومي العام يجب أن يتبع قوانين أكثر صرامةً ولا يعقل أن نسلّم أنفسنا إلى توارث عشوائي دون القدرة على الملاحقة القانونية لأولئك الورثة أو الأقارب المقصرين بسبب قلة كفاءتهم. أما في الشركات الخاصة لا نملك بصفتنا مجتمعاً الحق في التدخل في السياسات الداخلية ما دمنا لا نشترك بالربح والخسارة وما دامت لا تضرنا بإفلاسها. عندما يجازف أصحاب الشركة بتعيين أقاربهم فهي مجازفة من داخل العائلة (القبيلة) وتبعاتها تلاحقهم فحسب بينما المجازفة في شؤون العامة هي مجازفة جمعية لا يجوز التهاون بها.

قد يقول وقد قال قائل لماذا لا نتخلص من الواسطة كلياً؟ فهي في الحالتين تفتح المجال لإعطاء الأولوية للقرابة على حساب الكفاءة. في العادة يشار إلى الحالة التي يكون فيها الغريب أكثر كفاءة لكن ذلك ليس الحال دوماً فربما كان القريب كفؤاً، كما أننا قد نرد بأن القريب سيكون أكثر حرصاً على عمل أقاربه من الغريب لكن المشكلة الحقيقية هي في تعارض المصالح والتمييز عند وقوع خلافات بين أولئك الذين تم تعيينهم بالواسطة وغيرهم.

على أي حال، المانع الحقيقي من التخلص من الواسطة هي قبلية المجتمع وأهمية العائلة فيه. يفصل الناس بين حسنات وسيئات أي شيء لكن دائرة الين واليانغ تشير إلى اتصال وتكامل الجانبين. في العادة يتغنى العرب بأهمية العائلة ويذمون الغرب لفردانيته ثم يذمون بعض النتائج الطبيعية لأهمية العائلة في مجتمعنا في سياقات ثانية، دون التنبّه لضرورة الربط بين الظاهرتين. كيف للعائلة أن تكون مهمة إن لم تكن مفيدة للفرد على أكثر من صعيد؟ كيف لحسنات هذا الود ألا تعكس ظلالاً من مساوئ تحميل الأفراد أعباءاً تجاه القبيلة؟ وعلى سيرة الربط نستطيع الآن ربط هذه النقطة بما سلف، الواسطة والتي هي الامتداد الطبيعي لأهمية العائلة في المجتمع تقف بموازاة السمعة. السمعة لا تكون فقط بين القبائل بل بين أبناء القبيلة أيضاً. السمعة تحكم مكانة الفرد أمام قبيلته ومكانة القبيلة أمام أخواتها.

المصيبة المزدوجة في مركزية العائلة في المجتمع القبلي هي أولاً بالانفصام الانتمائي، القبيلة لا ترى نفسها جزءً من دولة بل وحدة قائمة بذاتها ولا تتردد أخلاقياً في التمدد في أي ذراعٍ حكومي أو من استغلال أماكنها في تلك الأذرع بتخليص أفرادها من التبعات لأي تصرفات سيئة أو بتسهيل الإجراءات وتسريعها لأبنائها مما ينتقص من حق الآخرين بشكلٍ غير مباشر.

المصيبة الثانية والتي تصب في صلب هذه المقالة هو ما على الفرد أن يدفعه مقابل كل التسهيلات والواسطات. الثمن للحفاظ على تلك الصلاحيات هو في الدرجة الأولى قدرته على مقايضتها داخلياً بصورةٍ أو بأخرى. أي، أن يتمكن من الوصول إلى منصب أو أن يملك ما يكفي من سلطة بأي صورة حتى يساعد أبناء قبيلته وأن يكون جاهزاً للمجازفة من أجلهم ولعلهم لا يستحقون ذلك أو ربما لن ينال مقابلاً مادياً لكنه حتماً يحصل على المقابل المعنوي. المانا؟ تلك العملة الموجودة في كل المجتمعات ولكنها تسوى وزنها ذهباً في المجتمعات القبلية، السمعة! وهنا نعني المكانة المعنوية.

بالدرجة الثانية التي لا تتخلف كثيراً بالأهمية عن الأولى يكون الحفاظ على تلك المكانة يرتبط بالتراتبية داخلياً وخارجياً، أما لمسح الساحة الداخلية نستطيع العودة إلى المقارنات في نتائج التوجيهي مع الأقارب. لا يتنافس الطالب فقط مع طلاب مدرسته بل هناك حلبة منافسة داخلية مع مجموعة أقران من أقارب. هذا الثقل الزائد على كاهله حتماً يصعّب مهمته نفسياً ويشتت تركيزه عن الهدف المنطقي للحصول على النتيجة الجيدة وهو الحصول على مقعد دراسي مناسب. لا تكترث هذه المنافسة بتلك الغاية بل قد تختفي الغاية العلمية العملية من الحسابات في بعض الأحيان، ما يهم العائلة من تفوق أفرادها على الآخرين هو تلك المكانة والمفاخرة، تلك السمعة! حتى لو كان ثمن السمعة أن يدرس الطالب تخصصاً لا يحبه وأن يفني حياته في وظيفة لا تطمئن نفسه فيها، طالما مكنته من اقتناء ما يكفي من الممتلكات ليتفاخر بها أمام أقرانه، طالما وفرت له معاناته النفسية القدرة على أن يترفع على سلّم السمعة.

أما عند النظر إلى الواجهة الخارجية يمكننا رؤية التفاخر بين القبائل عبر إنجازات أبنائها. وفي ذلك أيضاً المزيد من الأعباء النفسية والأفخاخ القاتلة للكفاءة وللروح المدنية. إذ يسهل على المقصرين من أفراد العائلات التغاضي عن تقصيرهم بانتمائهم لعائلات ذو سمعة حسنة أو تملك من السلطة ما يكفي لتخليصهم من المشاكل مما يمس في المساواة المدنية. كما يتيح هذا الترتيب القبلي للأفراد المجرمين أو المستعدين للإجرام إن تطلبت القبيلة ذلك ولعل أفضل إشارة لذلك هو مثل "العيلة إلّي ما فيها صايع حقها ضايع" والدال على قصور قضائي مقابل انتزاع الحقوق بقبلية.

أرجو أن تكون ملامح اللوحة ومقدمات الحجة تتضح في أعين القارئ هنا. هذه المكانة التي على كل فرد من المجتمع القبلي أخذها في عين الاعتبار قبل أن يقدم على أي خطوة لا بد أنها تمنعه من التقدم بنفس السرعة في بعض الاتجاهات مقابل نظيره في المجتمعات المدنية. كما أنها تسد تماماً بعض الطرق أو تصعبها.

التهديد المطلق للعار والنسبي للفضيحة

الآن لنضع الصبغة التيليكية على هذه اللوحة لندرك أن نوعاً فريداً من القلق يواجهنا في هذه الحقبة، قلقٌ لا يجوز التقليل من أهميته فهو يصل إلى الأطراف القاتلة من القلق الوجودي، من ذلك التهديد المطلق للموت في جريمة سمعة، قد يصعب علينا كرجالٍ تصوّر هذا التهديد الذي يعيق الكثير من تصرفات النساء لكن لا أخفيكم الحرج الذي يصيبني عندما أسمع بنات المجتمع الذي أنتمي إليه يجاهرن بعدم شعورهن بالأمان. دون الارتكاز على أي طرح نسوي إن كان ذلك ينفر الكثيرين علينا أن ندرك خطورة ما وصلت إليه مجتمعاتنا من تشوّه لا تعايش معه. كيف للمجتمع أن يزدهر إن شعرت النساء فيه بالخوف الدائم على أنفسهن وإن تركنا النساء عرضة للأفخاخ التي تتيحها الشقوق في النسيج المجتمعي إثر ذاك القلق الوجودي. إذا كان الشرف يعني في الأصل قدرة القبيلة على حماية نسائها ولو تصورنا المجتمع قبيلة واحدة لنا أن نتساءل أي المجتمعات تمتلك الشرف حقاً. تلك التي تهيمن عسكرياً واقتصادياً أو تملك ما يكفي من الندية كي لا تطغى عليها المجتمعات الأخرى أم تلك المنصاعة تماماً للأنظمة العالمية دون إبداء أي نوعٍ من المقاومة؟ أي المجتمعات تمتلك الشرف حقاً، تلك التي تشعر النساء بما يكفي من الأمن لتتطلع نحو المزيد من الحقوق والطموح أم تلك التي تتمنى نساؤها الفرار منها؟

أحد الردود المتوقعة على هذا الربط هو الإشارة إلى أن الخوف من الموت موجودٌ في كل مجالٍ في الحياة وأنني أبالغ في تصوير هذا الخوف دون غيره. لذا علي التعقيب بضرب أمثلة على مخاوف ثانية مثل الخوف من حوادث السيارات وأننا منطقياً نحاول تقليلها بوضع الإشارات والغرامات والقوانين. لكن الخوف من حوادث السيارات لا يتملكنا جمعياً ولا يلتف كأنه محور وجودنا. أما ما ذكرته من هوسٍ بالسمعة والمكانة في أعين العائلة والمجتمع يتقدم بدرجاتٍ واقعية ومعنوية على كل تلك المخاوف المختلفة من التهديد المطلق للموت. فهو لا يقتصر على جرائم السمعة والهاراكيري التوجيهي بل يشل الحركة المدنية بالواسطة السياسية. فوق ذلك تمتد هذه المخاوف لتشمل التصرفات في كل المجالات كما ستوضح المقالة، وأدعو القارئ ليمتحن الفرض الأساسي في هذه المقالة في حياته اليومية وفي قراراته المفصلية.

التهديد الذي كادت أن تكتمل ملامحه هو ليس التهديد المطلق للموت فحسب بل أيضاً التهديد الأخلاقي. جريمة السمعة في المحصلة هي جريمة تزعم أنها تعاقب عملاً ينافي الأخلاق المجتمعية، كذلك التقصير في اكتساب تلك المكانة في المجتمع القبلي ليس تقصيراً يستحضر العقاب الجسدي لكنه يؤدي إلى ذاك النبذ القِبلي. لماذا استخدم الأستاذ قورشة صورة من صور الإهانة المجتمعية في إثبات

حجته؟ لماذا تظهر الامتحانات الوزارية في الأحلام والكوابيس حتى بعد مرور سنوات على انتهاء سنة التوجيهي؟ لا نستطيع أن نعزو كل تلك الآثار لمفصلية تلك السنة، إذ لا يترك ما يوازيها من امتحانات في الثقافات الأخرى نفس المستوى من الترقب المجتمعي. حتى في المجتمعات العربية التي لا تتميز سنة التوجيهي أو ما يرادفها بالصعوبة نجد ما يكفي من ضغطٍ عائلي بخصوص التخصص الجامعي. ماذا عن الرافض لتقديم الواسطات أو تقديم مصلحة القبيلة على مصلحته الشخصية؟ ألا يمكن وصف التهديد الذي يقلق الجميع بالتهديد المطلق للعار والتهديد النسبي للفضيحة؟

العار في المجتمع القبلي قد يتطلب غسله دم الفرد، حتى تسترد العائلة مكانتها بين العوائل تتم التضحية بالفرد كالقربان، قربان للحصول على المانا. قبل ذلك كله يتردد الفرد في الكثير من قراراته بسبب ما قد يقع من فضيحة عند تخطيه أي من الحدود المجتمعية. ومع أن كل المجتمعات تمارس ضغطاً على أفرادها ولا تقوم إلا بدرجات معينة من التوافق والتنميط إلا أن الضغوط في المجتمعات القبلية معيقة للازدهار على المستوى الفردي وتباعاً على المستوى الجماعي. لا عجب بأن القلق من تهديد العار والفضيحة يصل مراحل وجودية في المجتمع الذي يجعل من مكانة الفرد قيمةً تعلو قيمته بصفته فرداً.

إن أصاب هذا التشخيص لنوع مميز من القلق الوجودي سنجد آثاره ممتدة على كل المستويات وجذوره ضاربة في عمق الثقافة. ذكر أي قصة أو مجموعة من القصص والأمثلة على حدا لن تشمل كل جذور هذا القلق لكنني أدعو القارئ لمحاولة إعادة النظر بالتقاليد وتصرفاته وهواجسه الشخصية مع هذا التصنيف في البال. سأكتفي هنا بقصة مقتل المتنبي المتداولة بأنه لقي مصرعه إثر هجائه لأحدهم وأنه كان قادراً على تفادي المواجهة الأخيرة إلا أن خصمه ذكره بأبياتٍ مدح فيها نفسه ليثنيه عن الهرب. لا أذكر هذه القصة كأنها حقيقة تاريخية ولكنها صحيحة ثقافياً ومذكورة بهذه الصورة لسبب، حكم الإعدام الذي أُصدِر وطُبّق بسبب إدراك الطرفين لأهمية الشرف.

أعتقد أنني قلت ما يكفي في الفقرات السابقة عن الفرق بين الشرف ومكانته الأصيلة وبين الصورة المشوهة التي وصلتنا اليوم، السمعة. وإذا كان الشرف بمثابة هالةٍ حول أشخاص مميزين أو عائلات عريقة فإن السمعة في يومنا لا ترتقي لأن تكون أكثر من الرائحة الملازمة للشخص. نعم قد تكون عطرة أو نتنة لكنها لا تشرق وتأفل وتتحرك الدول من أجلها. لعل آخر ظهورٍ لتلك الهالات هو حول بعض الزعماء العرب والشخصيات السياسية البارزة التي تترفع لمستويات صنمية لكن وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي والحريات في التعبير والإنترنت عموماً كلها تمنع تقديس الأشخاص وتأطير أي شخصية بهذه الهالة، على الأقل بالصورة الكلاسيكية. ولا أقصد بذلك تقدماً كبيراً فالآن هناك ما يوازيها في العقلية الرأسمالية من علامات تجارية وأساليب تلاعب تسويقية، وفي الدولة المدنية هناك ما يوازيها من بروباغندا سياسية، إلا أن هذه الألاعيب التي تنطلي على كثيرين لم تعد قادرة على خلق أساطير حيّة كما أن ذلك لم يعد مطلوباً لتوجيه الحشود. لا حاجة للاعتقاد بأن الزعيم من سليل الآلهة لاتباعه، بل تدنت درجة الاحترام ليصبح اختيار الرئيس يتعلق بسوء خصمه أكثر من حسن سمعته، خير شاهد هو ما حصل في آخر دورتين انتخابيتين في الولايات المتحدة الأمريكية.

النزيف الروحي في مراقبة الهاوية الترفيهية

التهديد الوجودي الثالث وفق تصنيف السيد تيليك هو التهديد المطلق لفقدان المعنى والتهديد النسبي للخواء. لا شك بأن المركز الروحي الإسلامي ما زال متماسكاً بما فيه الكفاية ليصد هذا التهديد بصورته المطلقة. لوهلةٍ يمكن تشبيه موقعنا التاريخي في هذا السياق بموقع أوروبا المسيحية، الحقبة الثانية في تحليل السيد تيليك والتي تفشى بها التهديد المطلق للإدانة الدينية وانحسر التهديد بفقدان المعنى سوى بعض الإطلالات هنا وهناك. لكن هذا التشبيه كأي تشبيه لا يعني التطابق، المرحلة التاريخية تلك سمحت لأوروبا المسيحية بأن تحاط بعالمٍ لا يختلف معها بتدينه بغض النظر عن اختلاف الأديان والعداوة الضروس بين الأديان والطوائف.

أما الشرق العربي المسلم محاطٌ اليوم بعالمٍ فقد المركز الديني. ملامح العدمية لا تتسرب بالتقطير بل تفيض حولنا وعلينا عبر قنوات عِدّة.

من الخارج لا تأتي العدمية عارية بل تتحرك في ظلال أيدولوجيات مثقلة بالمعاني. في لحظة مفصلية أشعلت الجحيم المعروف بالربيع العربي وفيه نجد أوضح دليل على أن الشباب والعديد من المفكرين العرب سلّموا دون قصد بنهاية التاريخ الفوكويامية واعتنقوا عقيدة الديمقراطية سبيلاً للخلاص. لم تطل تلك الآمال لكن أنصار تلك الثورات غضوا الطرف عن تصدّر الجماعات الإسلامية المشهد، تقبلهم لم يكن قبولاً تهليلياً منبهراً بالهالة الدينية بل كان مثل ذاك القبول من المصوت الأمريكي للمرشح الأقل سوءاً، قبولٌ على مضض. لا تكترث هذه المقالة بحيثيات الثورات لكن أذكر الربيع العربي باحثاً بين أغصن زقومه عن ذاك المركز الروحي. الخسارة التي تبدو الآن نهائية للصورة الذهبية النقية أخلاقياً للثورة وحتى للصورة البرونزية التي تقبلها كثيرون بالرجوع إلى حتمية الدموية الثورية تعني انسحاقاً تاماً للآمال التي لمعت في الأعين فور رؤية تلك الشرارة البو-عزيزية.

تعني هذه الخسارة لأنصار الربيع العربي وغيرهم يأساً لا سابق له في المنطقة. معظمهم أفنوا آخر عشرة أعوام في قتل معنوي للمفاهيم والرموز القومية أما القوميون أنفسهم مرهقون عسكرياً وفي عزلة فكرية، ومن وما تبقى من الأحزاب الشيوعية عرضة للانقراض. ولذا جاء الرهان الأخير على الديمقراطية الغربية ولكنها هي الأخرى لم تتحقق. لاحظ أنني لا أنفي قدرة أيٍ من هذه الأيدولوجيات الثلاث الصعود مرة ثانية أو الهيمنة لكنني أشير إلى أن هذه اللحظة التاريخية يائسة لجميع الأطراف. المعتنقون لأي من تلك العقائد في حالة دفاعية ويعانون من درجات مختلفة من إرهاق معنوي وفكري.

أكاد أرى ابتسامة مسلم مطمئن لأن العقائد الدنيوية تتقهقر وتسمح لعودة العقيدة الدينية. لكنها ابتسامة مرهقة مُعلّقة منذ قرن، منذ سقوط خلافة عثمانية، وتلقت أخيراً أقسى ضربة بالرعب الذي خلقته الخلافة الداعشية. نعم المركز الروحي لم يختف لكنه تزعزع بما فيه الكفاية وأصبح الحفاظ عليه قبضاً على جمر. ليس من الغريب تزامن التسليم الدنيوي بنهاية تاريخٍ فوكويامي مع ترقب ديني لعلامات الساعة والصبر استعانةً باحتمالية انتهاء كل شيء عما قريب. كأنما أحاديث "آخر الزمان" تشير إلى حقبة لقبها "نهاية التاريخ" أكثر من كونها إشارة إلى نهاية حقيقية للزمان. هذه العقلية هي الأكثر إرهاقاً ويأساً، هي مُرهَقة ومُرهِقة. مثل آخر عدّاء في ماراثون يلمح في الأفق خط النهاية ولولا تلك اللمحة لما تشجع على الهرولة في الكيلومترات الأخيرة وحتى إن وصل فهو لا ينتصر.

الشك هنا هو الشك بأن خط النهاية ذلك سراب خلقته حرارة نيران الربيع العربي. الشك بأن تلك الخلافة المزيفة الهوليودية أتلفت في العقل البشري الجمعي فكرة قيام كيانٍ ديني إسلامي. أمضى المسلم في العقد المنصرم معظم وقته مدافعاً عن صورة الإسلام أمام الغربي بينما اقتتل المسلمون فيما بينهم بوحشية بسبب تلك الخلافة كما أمضى العقد الذي سبقه في الدفاع عن صورة الإسلام بسبب الهجمات على أبراج التجارة. لم يُفقَد المعنى من الإسلام بأكمله لكن الحفاظ على المركز الروحي يتطلب صد هجمة إعلامية أرهقت الأذهان وزرعت ما يكفي من بذور الشك.

لكن الهجمة بعد هجوم سبتمبر لم تستمر طويلاً، التناقضات في الاصطفافات في الثورة السورية وموجة المهاجرين إلى الدول الغربية جعل من الإعلام الغربي مدافعاً في أحيانٍ متكاثرة عن المسلمين، إذ تدعم نشرات الأخبار الغربية الثورات وتضخ الاستخبارات الملايين لتلميع صورتهم ويُغض الطرف عن مدى تديّن الثوار، وبدأت البرامج الترفيهية في معقلها الأشهر نيتفليكس موضة زرع الشخصية المسلمة المقبولة غربياً. مع ذلك ما زال المسلمون في دول عربية في حالة رد الفعل التلقائي التي تذم الإعلام الغربي لعدائيته. الكلام هنا ليس دفاعاً عن دفاع الإعلام الغربي، الهدف من تلميع صورة المسلم المهاجر مسألة داخلية تخص دمجهم في المجتمعات الغربية وإدراج الإسلام المدجن تحت جناح العولمة. نقطتي هي أن لعل ما تمنّاه المسلم من إنصافٍ إعلامي جاء بصورة أكثر خطورة من استعدائه. بمعنى آخر، المركز الروحي لم يعد يتعرض للخطر المباشر الذي يتطلب الدفاع لأنه لا يستحق الهجوم أصلاً.

المغزى من كل ما سبق هو تصوير التهديد المطلق لفقدان المعنى، قبل التوجه إلى عن التهديد النسبي للخواء لنتحدث قليلاً عن الفقدان النسبي للمعنى. فلو كانت الهجمات الخارجية الأيدولوجية المباشرة غير قادرة على ترهيب المسلم إلا أن هناك فراغات في

درعه تكفي لاختراق ثقافي دون رفع أي سلاح. الطعنة المعنوية الحقيقية لم تأت من يد غربية للعنق العربي بل كانت شبيهة بمتابعة طقس الهاراكيري، المسلم يشاهد انتحار المعنى الغربي أمام عينيه والمنظر الصادم يشككه على كل الأصعدة. المسلسلات والأفلام في حضارة تحتضر روحياً تمجد العدمية والعبثية في الكوميديا وتزيّن حياة مقتصرة على العلاقات العاطفية والجنسية وتموّه خافية رأسمالية مع أنها جافية للمعنى، أعني تصوير الحياة دون أكبر جزء منها، ذاك العناء الوظيفي في روتينية اغترابية تنتزع من الحياة معانيها الإبداعية، وفوقها نقطة ميتا عن صناعة المسلسلات بصورة أخذت تفتقر للإبداع وتتسم بالتكرار كأنها على خط إنتاج.

حَذّر رجال الدين سابقاً من الغزو الثقافي ويعتبرون كل ما يحصل هجمة مقصودة على شباب الأمة الإسلامية لكننا الآن ندرك أننا في الصف الأول لمتابعة التقلبات الثقافية في بطن الحوت الأمريكي، تصوير العلاقة الترفيهية بالهجمة يتجاهل الظروف المادية الصناعية والتكنولوجية التي تكاد تجبر الإنسان على التغذي على هذا النوع من الترفيه وأنه مجبر على استهلاك الصادرات بسبب رداءة المحلي أو انعدامه بالكامل.

المستجد والذي أشرت إليه في مقالة أخرى هو أن الشباب من الأطراف المتقابلة سياسياً باتوا يستقون المواقف بشكلٍ مباشر من تلك التقلبات. المحافظون والليبراليون على ضفاف المحيط الأطلسي بدأوا بالاتفاق الفكري تدريجياً لكنه اتفاق فيه تقليد أو حذر متشدد من التقليد يمنع التطور الطبيعي للأفكار كما كانت الحال مع الحضارات قبل العولمة. الاتصال الماحي للمسافات عبر الإنترنت يربط الطبقات متيحاً لتسرب إسموزي للثقافة وما زلنا لا ندرك كيف يؤثر ذلك على وعينا بأنفسنا وهل من الممكن تجاهله في نقاشاتنا. لكن من المثير للاهتمام مشاهدة طوابق المتدينين تنساق بشيء من التلقائية، من شيوخٍ بقنوات يوتيوب وعقلية صناع المحتوى، وشباب يزعمون أنهم يدافعون عن الإسلام ولذلك يترددون على أشنع المواقع الغربية لاستقاء المواقف والميمز المحافظة. وإن لم يعني هذا تسرّب الثقافة التكنولوجية دون الحاجة لأي هجمة فلا أدري ما يعني.

الفقدان النسبي للمعنى يأتي هنا في مفارقة عجيبة، ربما كان من الأفضل للمسلم لو كانت الهجمة مقصودة ومباشرة تحت راية "غزو ثقافي" لأن ذلك على الأقل يعني أننا ندٌ نستحق الهجوم. أما بهذه الصورة نشك كمسلمين بأننا أهلٌ بالصراع الثقافي. عندما يقنع المسلم نفسه بأن تلك المسلسلات تنتج لاختراقه أخلاقياً يعتقد أنه الجمهور المستهدف، لكن الأقرب للواقع هو وقوف المسلم خارج المنزل الغربي والتصاقه في النافذة ومتابعة ما يتابعون ويشعر بشيء من الاغتراب لعدم تمثيله وشيء من الألفة مع تلك الشخصيات على الرغم من تباعدها عنه ثقافياً وقيمياً. وفي الوقت نفسه يجزع عندما يجد أي منتجٍ أكثر محلية على تلك المنصات.

هناك لحظة صادمة ونادراً ما تحصل وهي عندما يكتشف أنه لا يتابع شاشة التلفاز بل يدرك متابعته للنافذة كأنها شاشة، بأنه يتابع ثقافة مختلفة بأكملها وهو خارجها، بأنه عندما يتشاجر مع أخيه ويتجادلان حول مضمون ما على الشاشة داخل المنزل الغربي لا يدركون أنهم مشردون إبداعياً خارجها، بأن الأولى إنتاج ما يشبههم، لكن يشبه ماذا فعلاً؟ هل يدرك المسلم تماماً هويته في عصرٍ غريبٍ كهذا؟ أُحذّر من تلك اللحظة التي سيرتاح فيها المسلم لمدة كافية من الدفاع عن المركز الروحي ضد هجمات خارجية، الله أعلم بما سيلاقيه عندما يلتفت ليعاين ما تبقى من ذاك المركز، ذاك التاريخ، من تلك الهوية.

أما التهديد النسبي للخواء المعنوي فهو تحصيل حاصل من الحياة الصناعية الرأسمالية، الروتين والاغتراب وتضخم العملات اللامتناهي وفوائد البنوك الدولية. لكن يجدر بنا الإشارة لخلل تحليلي في النقد الإسلامي لهذه الحياة أو الاشتراكي لرأسماليتها دون أي اعتبار للطبيعة التكنولوجية لها. المتطلبات الصناعية حتى لو نزعنا طمع أصحاب الأسهم وحتى لو نزعنا الربوية ستحكمنا بنمط حياة معين، أو وضع كل العيوب في جعبة "الغرب الكافر" كما يفعل المنظور الإسلامي السياسي أو كأنها صفة فرضها "الرجل الأبيض" كما يدعي الليبرالي العربي. علينا أن نذكر ارتباط الثورة الصناعية والتقدم التكنولوجي بالخواء المعنوي، هل يلازمها أم هو ناتجٌ عن أحداثٍ أخرى؟ إذ كانت هناك في وقت مضى نظرة متفائلة جداً وعالمية -وإن كانت عنصرية- مرتبطة بالتقدم الصناعي، لكن الحروب العالمية أنتجت فلاسفة تتسم أفكارهم بالشحوب والخوف مما آلت إليه تلك التطورات.

في المحصلة يجب أن ندرك اقترابنا من المسيحيين في العصور السالفة بقدرتنا على الإيمان والارتكاز على المركز الروحي لكن على عكسهم نحن في عصرٍ يتصارع مع فراغ مركزه ويهددنا معه. كنتُ ولفترة ليست بوجيزة استغرب من التحليلات العربية الإسلامية لطبيعة الصراعات والظروف، كما كنت قبل أحداث الربيع أؤمن بالحلول السحرية من قيامة الخلافة لتوحد العرب وأجزم

بوحدة قلوب الشعوب. التناقضات والأنقاض في العقد الماضي دفعتني لأعيد النظر بكل ذلك لا محبطاً بسبب فشل الثورات بل متعجباً من عقم الإنتاج الفكري وتأخره الزمني في قراءة الواقع. هذا التأخر الذي يسمح لأصحابه في الحديث عن المعركة التي انتهت بخسارة كأنها لم تبدأ، ومع العودة التدريجية في الزمن وجدت أن التأخر لم يبدأ مع الربيع بل كان الربيع تاجاً على جمجمة آخر خليفة مسلم. الآن لا أدري كيف لنا أن نطوي قرناً من الأحداث بالترحم على ما سبقها وكيف للمفكرين البارزين بأن يرتكبوا خطايا تحليلية في إدراك تعقيد "الغرب" وفلسفته وسياساته وتسطيح أقوى الحضارات تاريخياً كأنهم أطفال متخبطون لا يدركون ما نملكه من حلول عبقرية لمشاكلهم الروحية أو الأخلاقية، من أين يأتي هذا التكبّر المسيري في التحليل؟ بينما يتدرج أعتى مناهضو الغرب في استخدام أدواتهم. أين مركزية السمعة من ذلك؟ أزعم أن ما يحصل هو رد اعتبار فكري ولهذا السبب لن نجني أي ثمرة فكرية ناضجة. كل أفكارنا تحاول الترفع عن الحقيقة، عن حقيقة بسيطة مؤلمة، أننا كمجموعة، مهزومون.

عار الدمار

لا يأتي الخوف من تهديد فقدان المعنى من جبهات داخلية بل من ما نعتبرهم خصوماً خارجيين. التحطيم للمعنى لا يقتصر على الحروب والتدخلات العلنية والاستخباراتية المباشرة فهنالك صراع معنوي في ثقافة الحضارة الغربية يتسرب إلى وسط دولنا -مع تحفظي على مصطلح الحضارة الغربية وعلى نون الجماعة للإشارة للعرب وللمسلمين-. الصراع بين الحضارة الغربية وعدة دول عربية وإسلامية ليس قديماً منسياً في هوامش التاريخ بل تذوق عدة دول مرارته مباشرة الآن، وهو صراع شبه متصل لم ينقطع للحظة تاريخية حتى تحصل نقطة التقاء فكري، في الوقت الحاضر لا ترقى أي من الأطراف المحلية إلى ندية من أي نوع مع تلك الدول العظمى. لكن لن أبالغ في فداحة الخسارة إن أمكن ذلك فتاريخنا المعاصر والقريب لا يخلو من استرداد ما يكفي من الحقوق والسيادات ومن المناكفة الكافية لدحر الاستعمار والانتداب في أكثر من دولة. ما يهمنا هنا هو أثر تتالي الهزائم وحالة الإحباط واليأس الحالية.

ماذا تعني كل تلك الهزائم لمخيلتنا الجمعية ولإدراكنا لذاتنا؟ هل يعقل أن نعتقد بأن خسائر على أطراف المعاني وأننا في المركز صامدون أم أن الثمن الباهظ وغير المبرر من الأرواح المدفوعة في سبيل صد الظلم لا يكتفي بالدماء والأجساد بل يتطاول على ما تعنيه التضحية؟ ألا تحمل كل هزيمة نكراء عاراً لا إنكار له؟

قبل المضي في الكلام علي أن أستثني تلك القامات من المقاتلين المقاومين حَمَلة البنادق أبناء الخنادق. أستثنيهم لا لمديح فنّي بل لأن وجودهم هو خلل تحليلي لا يمكن حله بسهولة لو أقرّ القارئ بقدرة الهزائم على ثني العزائم. وجودهم لا يسعه إلا تفسيرين، الأول هو وضعهم في طبقة المحاربين المعاصرين مما يعني بالضرورة مقابلتهم بطبقات من العوام أو حتى العبيد نسبياً. أما التفسير الثاني فهو بحاجة لمقالة مفصلة فحواها الإشارة إلى مصيبة تصنيفية عند المفكرين العرب المعاصرين. على أي حال ما يلي هو عن المدنيين في الدول التي لا تخوض معارك تحرير أو أي حروبٍ داخلية، ولا أستثني بعضاً من أبناء الفئة الثانية لكنني أشمل المهزومين نفسياً منهم فقط، ومن السهل ملاحظة ذلك على دعواهم على أي حال.

لا بد للعار الملازم للهزيمة العسكرية أن يترك في الحلق مرارةً وأن يذر رماداً يشوّه نظرة البعض بطريقة أو بأخرى. إما أن يفقد المحارب الأمل في الانتصار ويجثو أو أن يدخل في حالة هوجاء ناقمة، ولو كانت المعارك ما زالت تعتمد على الشجاعة المباشرة، على الحراب والنبال لساعدتنا تلك الحالة العصبية في قلب المعركة لكننا للأسف في زمن الطيارات المسيّرة عن بُعد والتكتيكات والتقنيات التي تبدّي سلامة المحاربين وبعدهم عن معمعة المعركة، بدلاً من أن تتنافس الأقوام في القدرة على المنازلات وجهاً لوجه تتنافس على توسيع المسافات بين الجندي وأهدافه.

العار إذاً يتراكم بتراكم الهزائم كمياً ونوعياً، هو عار لا نملك حتى القدرة على الدعوة لمبارزة نبيلة مباشرة لنغسله بتضحية، نشعر بأننا نُسحق دون القدرة على رد الصاع ولو حفنة. خير مثال، أو شر مثال بالأحرى، على ذلك هو ما ينتجه بعض القصاصين العراقيين من التركيز المفرط على الطائفية كأنها المشكلة والاحتلال الأمريكي كأنه حادثة عرضية أو جزء طبيعي من تاريخ الدولة،

هذا الانصياع ليس تاماً في العراق ولكنه أكثر من تام في دول أخرى وفي الكثير من عقول المثقفين الذين ينظرون إلى الولايات المتحدة بأنها إله عسكري وأن أي واقعٍ هو بمشيئتها، وتحت هذا العنوان تترعرع نظريات مؤامرات عجيبة، "لماذا لم تسقط الجهة الفلانية بعد؟ لأن أمريكا شاءت وما قَدّرت فعلت"

اختلاف صورة المعركة لا بد أن يولّد اختلافاً في صورة الغضب البيرزركي وفقدان الأمل. أما الانفعال بطبعه لا يدوم لكنه يتحلل ويترك ترسبات من الحقد. لا أعتقد أن الرغبة في استرداد الحق وحتى الانتقام في بعض الأحيان أمرٌ علينا التخلي عنه، فالتخلي عنه بمثابة فقدان الأمل وأفترض أن نفس المحارب السوية ترفضه جملةً. علينا أن نتدارك أنفسنا كي لا يستهلكنا ذاك الحقد بتوجيهنا إلى طرقٍ مسدودة عملياً وفكرياً لكن هذا قد يعني أن لا نرفض فقدان الأمل تفصيلاً، أي في بعض التفاصيل. وما هي تلك الطرق المسدودة أو كيف لنا أن ندرك نهاياتها؟ للأسف قد حصل هذا مؤخراً مع انهيار الأيدولوجيات وعدم وضوح تلك الطريق للحل الإسلامي، ذاك الحل المتأمل في عودة الخلافة بصورةٍ ما.

علينا أن نتتبع الخطوات لنعود إلى نقاطٍ ضللنا فيها الطريق، ولعلها نقاطٌ أعلن عندها البعض وضوح المعالم في الطريق قدماً. علينا أن نعود إلى هزيمة يتصرف -تحليلياً- البعض كأنها حادثة جانبية لا طامة كبرى: سقوط الخلافة العثمانية. وبما أنني أسلك الاتجاه المعاكس سأقلب الآية -إذ لن أنظر إلى ذاك السقوط كما اعتدت سابقاً وكما يؤمن كثيرون- بأنه نهاية مؤقتة بل سأتساءل ما إن كانت آثار تلك الطامة قد أُدركت حقاً؟ كل الشواهد في الربيع تخبرنا بأن السقوط لا يحمل عبرة معينة، تلك العبرة التي يرتلها الإسلاميون بأن السقوط كان سقوطاً مدوياً أخلاقياً ولكن في أي لحظة سيتلوه سقوط الحضارة الغربية بسبب تماديها في المادية. بل تُحبَس الأنفاس وتعض الأصابع انتظاراً لذاك السقوط الذي لا أدري متى سيأتي.

وحتى إن أتى قريباً فهل سيأتي مع صعودٍ هنا أم سيوازيه صعودٌ لأنظمة شرقية أكثر مادية وربما أكثر قسوة؟ هذا الانتظار لا يفسره سوى العار الأعظم الملاحق لنا منذ لحظة الانهيار. بالطبع في لحظة السقوط ومن مسافة الصفر لم يكن من الممكن إدراك ما وقع وما هو قادم. لكننا الآن على بعدٍ زمني كافٍ لكننا لسببٍ ما لا نواجه ما يعنيه كل ما حصل، ولا توجد محاولات تحليلية منصفة ومتفقٌ عليها -لدرجة كافية دون الحاجة للإجماع- للأحداث المعقدة التي طوت صفحة تاريخية تفوق الكلمات فيها وصف ألفية واحدة. نجد تكراراً لبعض الأخطاء يليه مباشرة الترحم على مرحلة تاريخية نحن في ذكراها المئوية. كأننا لم نتعلم أي شيء بعد كل ما وقع خلال مئة عام ولم تتمكن عقولنا من تخيل عالمٍ مختلفٍ نسعى إليه أو حتى التعايش مع العالم الذي أُقحِمنا فيه.

الآن بعد وصولنا إلى طريق مسدودٍ ألم يحن الوقت لنسأل ما إن كان العار قد أعمى الكثير من البصائر؟ كيف لنا بعد كل ما حصل وكل ما نعلمه الآن عن تاريخنا وتاريخ غيرنا أن نتحدث كأن مسألة الخلافة هي مسألة وقت فقط؟ هل يحتاج الفكر العربي لمقولة مرادفة لما ورد عن نيتشة؟ وبما أنها كفرٌ بواح ألا تأتي المقولة الأنسب للإشارة إلى موت خليفة لا الإله؟ ألم يحن الوقت ليؤذن في الوعي الجمعي أن "الخليفة قد مات".

ما زلنا نتتبع حالة الغضب الهوجاء للمحارب المهزوم لحظياً والذي لا يمتلك تلك العقلية الاستراتيجية طويلة الأمد. ما يطول أمده مع هذا المحارب هي تلك الأحقاد المترسبة. كيف تظهر تلك الأحقاد عندما تكون السمعة مركزية ويشعر بتهديد العار المطلق ولا يستطيع إنكار التهديد النسبي للفضائح المتلاحقة بالخسارات المتتالية؟ لفهم ذلك علينا أن نراجع النظرة القِبلية للمكانة ونرتفع في التحليل ليتبين لنا بشيء من الوضوح أن مواجهة ذلك العار يحدث فكرياً برفضٍ أهوج "للآخر". لا أعني إلى مجال تقبل الآخر بالمعنى المدني بل أتحدث عن مفهوم صراع الحضارات، ليس صراعاً كما وصفه هنغتون فهو لا ينبع مباشرة من ذوات أفراد المجتمعات العربية أو الغربية إذ سمح التقبّل للآخر الغربي بتوضيح إمكانية التعايش تحت منظومة قوانين جيدة وإن لم تكن مثالية. لكن الصراع المباشر العسكري والاستعمار الحرفي لبعض الدول العربية يعني أن الصراع خارجي، وبما أن ثقافة أحد الطرفين هي المهيمنة بينما سحقت الثانية، سنجد رفض "الآخر" الفكري والتمسك بال"أنا" الجمعية بهمجية. كأنها قبائل متصارعة ونحن لا نكترث بالواقع بقدر اكتراثنا بموقعنا أمام القبائل الأخرى. بدل أن نفكر بجدية بمجاراتهم نفكر بطريقة لنبرز صورةً تخفي الواقع المسحوق والمهزوم.

سأبتعد عن كليشي الحديث عن داعش لأنه موضوع مشبع بدلالات معينة مع أن ذاك الإشباع بذاته يدل على ما أحاول وصفه. سأذكّر سريعاً بالمحاولات والجهود التي يبذلها المسلمون في الأنشطة الدعوية وتحسين صورة الإسلام على حساب تحسين أحوال المسلمين داخلياً حيث تجد نفس الداعية السمح لإدخال غير المسلم في الإسلام ينمسخ إلى وحشٍ ضاري عند الحديث عن طوائف أخرى أو حتى جماعات إسلامية مختلفة سياسياً. عند وقوع جريمة ذات طابعٍ سياسي يتسرع الإعلام الغربي في وصف القاتل بالإرهابي لكونه إسلامي تأتي ردة الفعل على ردة فعل الإعلام بالإنكار عليهم. وما إن يثبت كونه مسلماً أيضاً يسرع معظم المسلمين في تبرئة الإسلام الحقيقي من هذه الجرائم. لا مشكلة في ما ذكرت حتى الآن، هذه الردود ليست محصورة عليهم إذ يمكنك تتبع نفس البروتوكول عند جماعات أخرى وخذ العنصريين البيض مثلاً فهم أيضاً في زواياهم على الإنترنت يعتبرون أن الإعلام يهاجمهم وأن هناك هجمة على العرق الأبيض، ومن أقذر ما أنتجته هذه المظلومية عندهم مجزرة مسجد نيوزلندا عام 2019.

ردود الأفعال للأخبار وكيفية شحنها للأفراد مسألة تقع في تقاطع بين موضوع التكنولوجيا المرئية وأثرها على إدراكنا للعالم وبين موضوعنا هذا وبين موضوع صراع الهويات القريب جداً. سأكتفي هنا بموضوعنا والتركيز على "جماعتنا". الفارق بين الجماعات الأخرى التي تعتبر نفسها تحت هجمة ما وبين جماعتنا هي أننا لقد صنعنا من أحقادنا المترسبة حججاً تمنع أبسط درجات النقد الذاتي. النقد الذاتي فيه من الإقرار بالهزيمة والتواضع ما لا يتوافق مع التعجرف القبلي، فيه من طأطأة الرأس أمام عار الدمار ما لا يطيقه من تمركزت السمعة في ثقافته. لعل شخصية الشاعر المتبجح المتبرطع في أبياته أفضل مثالٍ على هذه العقلية ولكنها تؤدي إلى التهلكة لو تمسك بها للرمق الأخير. الخوف من العار يجعل تعاطينا مع هذه الأخبار تعاطياً يعتمد كلياً على الصورة دون التنبه للمضمون. لا يهمنا حقاً إن كان المسلمون يتقاتلون فيما بينهم لكن لا يجوز أن يتعرض غير مسلمٍ لنا ونحن مشغولون في قتل بعضنا. ولو عدنا إلى الجانب الأخلاقي نجد عدم اكتراثٍ إن انتشر الظلم المنزلي متمثلاً على أطرافه بجرائم السمعة أو في المجمل عندما يظهر بتكبيل الأفراد لاعتبارات عائلية ومجتمعية، المهم هو صورة المجتمع المحافظ. نقدي هنا ليس ليبرالياً سطحياً يدلل على النواقص الأخلاقية في نظر المحافظ للمطالبة بالمزيد منها في مواضع أخرى. هو نقدٌ للتناقض على المستوى الفكري ولأنه يطرح سؤالاً صعباً ربما لم يتحضر الذهن له. هل تلك الصورة المثالية مستحيلة اليوم لأن ظروف اليوم قاصرة أم هل هذه الصورة المثالية مثالية خيالية على مر الأزمنة؟ هل هذه الصورة المرسومة في الطريق المسدود هي ما حثنا على السير في هذا الطريق؟ وإن كانت الإجابة نعم ألا يعني ذلك أننا بحاجة للتجرؤ على إعادة قراءة التاريخ قبل محاولة قراءة الحاضر. نحن ننظر إليه كتاريخ "جماعتنا" المعصومة التي علينا أن نقف معها ظالمةً أو مظلومة. إلى متى سنحمل تلك الابتسامة المرهقة الزائفة ونحبس الدموع على المعاناة القاسية التي ذقناها ونذوقها على مدى قرن على أقل تقدير؟

باختصار، الترسبات بدل الغضب الأهوج تظهر على شكل رزمة من الحجج المغلّفة بغلافٍ مفرغٍ هوائي لا يسمح لأي معلومة بتغييرها، لأن الخوف من أي فضيحة يولّد القدرة على رقعها فور حدوثها. مثلاً لا يمكن أن يكون هناك علة حقيقية في طبيعة تأويل الإسلام في هذا العصر، الحل المباشر هو نفي إمكانية جذب الجماعات الإرهابية للشباب أو تحوّل الدين لأداة. بالطبع حتى حجة تحويل الدين لأداة مقابل تطبيق حقيقي للدين ليست بذاك الوضوح لكن رجال الدين يكتفون بهذا القدر من المحاججة. على صعيدٍ آخر لا يمكن أن تكون هناك مشكلة في الثقافة، سيقول لك المفكر اليساري بأن هذا أو ذاك النقد ثقافوي ويرفضه لثقافويته فقط دون الخوض فيه. -بل سيهاجم هذه المقالة بتلك الحجة- ثم يتفق هو واليميني (القومي) على أن أي نقدٍ هو نقد استعماري إمبريالي. كما لا يعقل أن يكون هناك نقدٌ لحالة اللغة المزدوجة خشية من أي نقد للفصحى، تلك لغة رائعة لا مثيل لها ويجب أن تكمن المشكلة في مئات ملايين المتكلمين. لا يعقل أن تكون هناك دولة عربية جائرة لأن ذلك كلام عنصري وعلى أي حال نحن كلنا عرقٌ واحد لا تجمعنا الجينات أو التاريخ وإنما تلك اللغة الرائعة، التي يتخبط بها المشار إليهم بالعرب. هذه المقدمات لا تطرح عادة في هذا التسلسل ولذا يسهى عنها الخائفون من الثقافوية بالعادة، فلو قال أحدهم أو افترض أننا العرب مجموعة واحدة ولنا حسناتنا أو صفاتنا الحيادية لماذا ينفر من الاعتراف بمساوئ مشتركة أيضاً؟ ولماذا يتحامق بنفي الصفات السلبية كأنها محصورة على العرب بينما يدرك المفكرون في كل الثقافات أن ثقافاتهم بحاجة مستمرة إلى النقد والتحسين؟

في المحصلة نحصي التالي من العقبات الفكرية: لا يجوز وقوع نقد ذاتي للإسلام أو للثقافة أو للغة أو لأي مجموعة. سأنوّه لأن الناقص هو نقد الذاتي أما الخارجي فهو منتشر وإن لم يكن منصفٌ لعدة أسباب منها مركزية السمعة. إذ يتركز النقد الخارجي على الإهانة والإقصاء والشخصنة لأن الهدف بشري دوماً لا فكري. لكن لنركز على النقد الذاتي القاصر لا لندرة المفكرين بل لأولوية

تغطية أي "فضيحة". انعدام النقد يعطي انطباعاً بأن اللغة التي نتحدث بها لا ترسم لنا تصوراً للعالم وكأن الثقافة لا تعتمد على تلك اللغة ولا تستمد تقاليدها من تلك الأحداث التاريخية التي لها قراءة واحدة وتلك المصادر الدينية التي ترفض أي تأويل مختلف. وإذا كانت الأحداث التاريخية فضائح سنجد الهزائم تكنّس والدين لا يُمَس وعليه لا خَطب في الثقافة وإن وُجِدَ وعُرِضَ بصورة لا لبس فيها يتسارع العربي إلى "ماذاعنهمية". أو إن كانت هناك مشكلة فهي عدم تطبيق الدين "الحقيقي". أترى عزيزي القارئ كيف تدور الحلقة المفرغة من الحجج المغلقة منعاً لأي استنتاج مفيد ووصولاً إلى طريقٍ فكري مسدود؟ ما ستحصل عليه في العادة هو أبيات شعرية أو شعارات أو حفنة اقتباسات مقصقصة إن كان المفكر مجتهداً بعض الشيء. ناهيك عن الهوس في الطرح الأكاديمي المعاصر الذي يعتمد بالأساس على مراجعة الإنتاج الفكري دون إدراك أن الإنتاج الفكري عليه أن يبدأ قبل أن تتم مراجعته. مما ينقلنا إلى الجوانب الفكرية من مركزية السمعة.

الهالات السوداء

مركزية السمعة تخترق الجانب النظري والتنظيري عبر شخصنة الأفكار والتركيز المفرط على المفكرين. المفكرون في الثقافة العربية الإسلامية كانوا في معظم القرون رجال الدين وفي القرن الأخير ظهر منهم مفكرون أكثر دنيوية في التحليل -وذاك لا ينفي بالضرورة تدينهم-. من هنا نلاحظ خطورة منع نقد رجال الدين تحت ذرائع مثل "لحوم العلماء مسمومة" وهي في الأصل تشير إلى الافتراء عليهم لا النقد العادي لكنها مع الزمن تحولت إلى عقبة فكرية في عقول العامة والخاصة على حد سواء. لكن كي نتخطى المرحلة السطحية في التعاطي مع هذه المعلومة ونتظاهر بأن رجال الدين يقبلون النقد لو كان بناءً دون الإسهاب في هذه الفقرات لنشير إلى أن مفهوم النقد المعاصر بطبيعته الأدبية لا يمكن أن يطبق على علوم رجال الدين المعنية بأهم ما في الثقافة الإسلامية. حساسية موضوع تخصصهم يعطيهم هالة بشكلٍ تلقائي لكن ثقافتنا في هذا العصر لم تعد إسلامية محضة. يمكننا تأجيل التباكي على هذا لاحقاً ولكن الآن لندرك أثر ذلك على حمل أوزار ثقافة محتضرة تكابر على الاعتراف بحجم اليأس في نفوس أبنائها.

الأثر الأوضح هو تبجيل "رجل الدين" في زمنٍ بالكاد يملك فيه هذا الرجل من سلطة. لا أدعو إلى الحط من موقعهم هنا بل أشير لما هو بَيّنٌ بعد الربيع العربي من التفاف كل رجل دين حول حكومته الدنيوية. رجال الدين يقولون أن تلك صفة علماء السلاطين عندما تحصل عند غيرهم ويطمئنونا إلى وجود صنف مميز من علماء لا يخافون تبعات قول الحق ولا يلتفتون إلى لوم لائم وما إلى ذلك، علماء ربانيون أو كذا. لكنهم أشبه بكائنات أسطورية علينا البحث عنها. أما رجال الدين الذي أنصت لهم الملايين وحملوا الأسلحة وهاجروا للجهاد وفق أوامرهم كانوا أولئك المتحدثين كأنهم وزراء بروباغندا لا العلماء الربانيون، قابلهم العلماء المطالبين في الحفاظ على الاستقرار أو انشطروا أنفسهم بين زعزعة دول أخرى مع أولوية الأمن في دولهم.

عند ذكري لفقدانهم للسلطة أشير أيضاً للسلطة الفكرية لا للسلطة الدنيوية. أما السلطة الدنيوية فانعدامها عند الفقهاء ربما مسألة قديمة قدم الفقه. في عصرنا يتفاخر رجال الدين المسلمون بأنهم لم يشكلوا مراكز دينية مثل الفاتيكان ولا أدري إن كان هذا فخرٌ أم عيبٌ في من يدعي أن تطبيق الشريعة الإلهية هو هدفه بينما يسمح لنفسه الخضوع للخلفاء سابقاً والحكام لاحقاً.

أما السلطة الفكرية فهي عن طريق امتزاجها في مركزية السمعة ستتلاشى بلا شك. كيف يحصل ذلك؟ عندما يضع كل رجل دين معلمه ومعلم معلمه والسلسلة بأكملها على رأسه ويرى في نقدهم حرمة ولا يجرؤ على الحياد عن أي مما تعلمه أو حتى أن يفكر بإعادة نظرة جذرية في مذهبٍ أو مسألة دينية سنصل منطقياً مع مرور الزمن إلى أناسٍ يعملون كأنهم "يو إس بي". لا أقلل أبداً من قدراتهم المذهلة على الحفظ بل أغبطهم عليها لكن مع قدرتنا على الوصول المباشر لما قاله القدامى ما الحاجة لمعاصرين يرددون ما قيل؟ كما لا أقلل من قدراتهم النقدية لكنها دائماً مصبوبة في نقد تدميري للمخالفين بدلاً من تنقية المدارس الفكرية أو المذاهب التي يتبعون لها.

مركزية السمعة أيضاً تخترق النمو الطبيعي للفكر عندما تقع المبالغة في التركيز على الأشخاص لا الأفكار، حتى في تلقيها وإيصالها. إن لم يكن الكلام واضحاً كل ما عليك فعله هو التنبه لتذمر المفكرين من تلقي الشباب فكراً غربياً والحديث عن مفكرين

قدامى كأن الزمن لا أثر له على أهمية الفكر، وأننا علينا التعاطي مع أصحاب الفكر كأنهم لاعبون كرة قدم حيث نمجد الفريق الذي نشجع لأنه فريقنا وسمعتنا من سمعته.

فكّر بأسماء أشهر المفكرين العرب وثم فكّر بمصطلحات استخدموها لتقديم أطروحاتهم وقارن ذلك بأشهر المفكرين الغرب لتجد الفجوة بين التركيز على الأشخاص وعلى الأفكار. على المستوى الدنيوي وللحديث عن القرن الماضي نجد أمراً مشابهاً عند الحديث عن مفكرين وعن طريقة تمجيدهم ومدحهم. لقياس صحة مزعمي هذا أدعوك إلى قراءة أي مقالات تتحدث عن المفكرين وكيفية البدء بمدحهم بدلاً من الدخول مباشرة إلى صلب الأفكار، بالعادة لا أجد كلاماً عن الفكر دون تحضير القارئ بقيمة مفروضة على شخص المفكر. مقابله ستجد الكثير من التهم الشخصية عند محاولة نقد أفكار مخالفة بدلاً من التعامل معها على أساس نظري فيه ما يكفي من التجريد. قد تعاني في بعض الأحيان بحثاً عن الفكر الخالص لأي من المفكرين المذكورين، أو مدارس واضحة المعالم، ما ستجده من مدح وذم كأن سمعة المفكر على المحك والاختلاف يدور حول إحراج المفكر لا إثبات صحة الرأي أو نفي الخطأ، كما ذكرنا عن ذاك الأستاذ الجامعي الذي سعى إلى إقصاء أحد الطلاب بتلطيخ سمعته. كل هذا يدفع العقلية العربية إلى تشييئ الأفكار وتحويلها إلى ممتلكات لا يجوز التعدي عليها عندنا لكنها حلال إن كانت في القبيلة المقابلة. التركيز على سمعة المفكر ومدرسته (أو رجل الدين ومذهبه) تأتي على حساب استيعاب حججه ونظرياته وإنصافها بالاتفاق أو الاختلاف. وتعني بالضرورة أن المفكر نفسه سوف يعرض أفكاره كأنها ممتلكات ويدافع عنها كأنها مواد ويحسب المعلومات بالميزان وعدد الكتب المقروءة.

ألم يحن الوقت لأن نقرّ بضرورة نزع الهالات عن هؤلاء وألا نفترض تلقائياً عصمة أو حسن نية رجل الدين أو المفكر فقط لأنه رجل دين أو مفكر. نزع الهالة لا يعني إهانة الشخص، كل ما في الأمر دعوة للعودة إلى العالم الطبيعي البشري وعدم التركيز على السمعة إيجاباً أو سلباً وعدم تلقي المعلومات كأنه محاطة بالنور فقط لأنها صدرت من فلان أو فلان وأن ندرك مخاطر التقديس المتراكم عبر الزمن للشخصيات فتلك التراكمات تشكل كومة تسد الطرق فكرياً. والأهم من هذا أن نأخذ ما قلت إلى نتيجته المنطقية الأخيرة: لا عصمة في التاريخ البشري، بدلاً من سلسلة إحراجات للشخصيات، أين هو علم الأنساب الفكري؟

الجانب القبلي والحاجة للقبول الجمعي أيضاً تؤخر جرأة الطرح، هنا وفي الكثير من المواضع في المقالة يمكنك استبدال مركزية السمعة بصفتها الأعم "أحد آثار القبلية" لتدرك ما يعنيه ذلك على أي مثقف يضطر إلى الإنصياع للعصابات التحريرية في أي موقع، أو حتى في الأوساط الفكرية -على افتراض أن ثمة شيء كهذا في عصرنا وتحت حكوماتنا- ستجد المبالغة في المدح أو الذم.

ثقافة اليأس

في الفقرات السابقة وجدنا كيف يتحالف تهديد العار وتهديد فقدان المعنى ليشكل وحشاً مخيفاً لا نجرؤ على مواجهته، وحشٌ في ذواتنا لا تستأصله إلا أكثر العمليات الجراحية توغلاً ودون أي مخدر من الأوهام. كيف لنا أن نواجهه ونحن نخشى من الإقرار بأي فضيحة أو هزيمة أو قصور من أي نوع؟ حديثي عن عدم وجود نقدٍ ذاتي قد يجابَه بالإشارة إلى اللطميات اليومية في المجتمعات العربية. أدعو القارئ إلى التدقيق بمحصلة اللوم وسيجد أنها تنحصر بعد الابتعاد الحَذِر عما سبق بلوم الحكومات أو الذات. الربيع العربي كان بمثابة الهجمة الأخيرة على فزاعة الحكومات الشريرة التي تمنعنا عن الطريق السليم، في نظر الإسلامي أوقفتنا الحكومات الدنيوية عن إقامة الخلافة، وفي نظر العلماني أوقفتنا قمعيتها عن إقامة الديمقراطيات. مع كارثية مآل الربيع العربي نجد شعارات أنصاره تُرسَم بأعتم عدمية الجدوى... طبعاً حتى الربيع يندرج تحت الملفات التي لا يجوز نقدها فهو هزيمة مما يعني أنها فضيحة أخرى. رُقعَتها الجاهزة تأتي بوصف أي نقدٍ لها بأنه نقد سلطوي وهذا أسمك الرقع أما أرقّها هو رقع التدخلات الخارجية بأنها بطريقةٍ ما كانت ضمن الثورات المضادة. يكفينا معرفة ضحالة الطرح من سذاجة الشكوى من الثورة المضادة كأنها مفاجأة عند الخروج على أي ظالمٍ أن يستميت لسحق أي محاولة لإسقاطه.

نلاحظ هنا أيضاً شرور مركزية السمعة في شخصنة الصراعات بأفراد الزعماء كأنهم كائنات خارقة والابتعاد عن التحليل الكامل للهرمية وما تعنيه صلات القرابة بين قوات الأمن وأبناء الشعب والتقصير الاستراتيجي سواء للثوار في اليوم أو الجيوش العربية في

الأمس. يندرج هذا الملف بشكل ممتاز في درج مركزية السمعة على كل الأصعدة: عدم الإقرار بالفضيحة، الهالات السوداء حول الدعاة إلى الثورات، تعظيم الحكام حتى في إهانتهم وتصويرهم كأنهم وحوش قادرة على إبادة لمئات الآلاف بمفردها، كل هذا يدل على أن الربيع لم يأت بجديدٍ فكرياً، لكن آثاره الكارثية خلقت واقعاً تتراكم فيه الأخطاء التحليلية على مدى قرن وربما أكثر ويشتد الصداع المعرفي لكل من ينفيها.
بعد تراكم كل الفضائح واتساع الرقع على الراقعين من شتى الاتجاهات الفكرية نجد أنفسنا في هذه اللحظة التاريخية العجيبة، هنا نجد الجميع يحلمون بالهجرة حتى باتت الهجرة جزءً طبيعياً من حياة العوائل في بعض المجتمعات العربية. هذه الحالة من عدم الاستقرار والشعور بالعجز الاقتصادي الدائم أو الإهانة التي تحول ما كان يوماً ما مقدساً (أرض الإنسان) إلى رقعة مثلها مثل أي رقعة. أمام مذبح الرغبة الملحة للهجرة تجد سجادة صلاة قبلتها ليست الكعبة. أسفل السجادة يتم إخفاء كل تلك الحجج الترقيعية. الغرب ليس بذاك الكُفر عندما نفكر في الرحيل إليه، هناك رشة من السمرة على وجه الرجل الأبيض اللئيم الذي نلهج بذمّه.

مع كل حادثة أو كارثة تتكرر وتتكرس تلك السلسلة من الشكاوى ضد الحكومات أو اللطميات دون أي بحث حقيقي عن أهداف واقعية، ولا يعقل الحديث عن أي معتقد أيدولوجي حديث مع العوائق الفكرية التي سبق ذكرها وغيرها إضافةً إلى المعوّقات السياسية. هناك إجماعٌ على الخلاص الفردي وفي ظل هذه العقلية يمكننا إدراك إدراكِ المجتمع لذاته لا بصفته وحدة واحدة بل بأنه مجموعات متزاحمة. هذا الوصف لا يبتعد كثيراً عن حقيقة المجتمع القبلي الذي يعامل المدنية كأنها هدنة بين القبائل لا أكثر أو الفكر الإسلامي المعاصر الذي يعامل الواقع على مدى قرنٍ بأنه استراحة ما بين الأشواط دون الصدق في تشخيص سبب طيلة استثنائيتها. كل هذا يؤشر على حالة اليأس من أي حلول قريبة أو بعيدة. مع الكورونا يضيق الخناق تدريجياً على الجميع ومع فشل الربيع يصيب الشك حتى تلك النهاية السعيدة التي آمنت بها الشعوب قبل الربيع العربي والتي أثبتت درجة عالية من الخزعبلاتية في التحليل.

الحفاظ على أي من تلك الأوهام بمثابة حفاظ رجل بالغ عاقل على مرجعية القصص المرعبة والبطولية التي سمعها وهو صغير. قصص الجنان الأربع الدنيوية وما يأتي في ظلالها من راحة مطلقة. هناك جنة الخلافة الإسلامية التي يؤمن بها الطفل دون إدراك بشرية تاريخ هذه الخلافات والتقارب بين كيد العائلات الحاكمة لها وأي من العوائل الحاكمة لإمبراطوريات أخرى على مر التاريخ. هناك الجنة الاشتراكية التي تختفي بها التراتبية وتتساوى كل الطبقات دون الإقرار بعجز محاولاتها على مواجهة الوحش الرأسمالي الديمقراطي الذي قهرها في ملعبها الاقتصادي. هناك جنة القومية العربية التي تختفي فيها الحدود الجغرافية الطبيعية بشكل سحري ويختلط الملايين لا لوحدة عرقية أو تاريخية بل لغوية محضة بصورة لا مثيل لها في أي لغة وحضارة. وأخيراً جنة الديمقراطية ذاتها التي نرى حطامها في تناقضات الثورات وتداخلات وتدخلات بالكاد نستطيع فك طلاسمها دون الارتكاز على شعارات طفولية تجعل من الشعوب ملائكة أو استعارات فظة من حروب التحرير وتتجاهل استحالة الفصل الكامل بين مفهوم الحكومة والشعب في أي دولة لا تخضع لاحتلال مباشر.

كل هذه الجنان الدنيوية التي كانت ربما في حقبٍ ماضية ممكنة المنال هي اليوم أقرب إلى الخيال. أي ناظرٍ إلى جحيم الواقع يدرك أنْ لا جنة في هذه الحياة.

قتال الخيال

لكن الدعوة إلى التحديق في آفاق صحراء الواقع ليست دعوة للإمعان في اليأس. لنعد إلى طرح السيد تيليك وإلى حديثه عن اليأس الحاضر عند امتزاج أنواع القلق التي ذكرها. اليائس ما زال يملك من الوجود ما يسمح له بأن ييأس، لا يشعر بتهديد العدم إلا من هو موجود، حيث انتصار العدم دوماً محدود. لكن أنى لنا أن نحضر الشجاعة لأن نكون؟ في نهاية كتابه يفصّل السيد تيليك الحلول وفقاً لنظرته الفلسفية لكون الله بذاته أساس الوجود. أدعو القارئ ليستكشف ذلك بنفسه أما هنا سأخطو في اتجاه يحيد قليلاً عن طرح السيد تيليك فقط حتى تتناسق الخلاصة مع فحوى المقالة والتسلسل فيها.

إذا كان لا بد من وجود قصص خيالية لاستيعاب خطورة القلق الوجودي وما يواجهنا من يأس جماعي دعونا إذاً أن نختلق بكامل وعينا الرمزي كياناً فقط للتشبيه والتوضيح. أولاً نحن نؤمن بملاك للموت وجرت على الألسنة تسميته باسم عزرائيل. هذا الملاك مع منجله في التصور المعاصر هو التمثيل الأنسب للتهديد المطلق للموت والنسبي للقدر. أما الملائكة التي تمثل التهديد المطلق للإدانة والنسبية للذنب فهي الزبانية بنيرانها المستعرة. تهديد فقدان المعنى لن يتسم بأي تصور ديني لطبعه الدنيوي، علينا أن نتصور هذا التهديد على صورة بشرية، يمكننا أن نأخذ تصور المنتحر وعذابه المتمثل في إعادة نحر نفسه لكن في صورة أكثر واقعية. لا داعي لأن نتبعد كثيراً في خيالنا بل يمكن ببساطة الإشارة إلى صورة الإنسان المعاصر العائد من عمله مرهقاً والمتلهف لالتهام ما يمكن من دوبامين سواء على صورة تلفازية أو بالتحديق في شاشة تحرق حدقتيه وسط غرفته المظلمة قبل النوم. لنتخيل جسده كما هو جسد المدمن الهزيل. التهديد المطلق لفقدان المعنى والنسبي للخواء يأتي عند انقطاع الكهرباء، عند وقوع الحظر واكتشاف المرء لأنه أمضى سين من الزمن في حالة هروب من مواجهة عدمية العالم الصناعي الرأسمالي، ومع هذه المقالة لا يجوز اللجوء إلى أي من أحلام تلك الجنان الدنيوية أو الأعذار القاصرة عن الإلمام بكل ما فقدناه في القرن الماضي. هذه المقالة تقصد قطع الكهرباء حتى يواجه المرء جسده اليائس المدمن ويرى في طرف عينه عزرائيل والزبانية.

ماذا عن التهديد المطلق للعار والنسبي للفضيحة؟ لنتخيل كياناً بشري الأصل ملائكي المنظر بإرهابه للناظر. تنبثق من أماكن عشوائية في جسده أعينٌ لا ترفع نظرها عنك، أعين المجتمع التي تلاحقك مهما فعلت ولا تتركك حتى في عقر دارك، أنت دوماً في هذا المجتمع القبلي تجاهد نفسك مراعاة نظرات الناس لك وأقاويلهم، في معظم الأحيان وخصوصاً عند الإناث يكون الإجبار مباشر لكن حتى لو تحررت اقتصادياً ولم يكن هناك أي هيمنة عليك لن تتخلص كلياً من مركزية السمعة. هذه المركزية تثقل فكرك قبل أن تكبّل خياراتك، لذلك لا بد من أن يكون الكائن عملاقاً يشعرك بصغر حجمك أمام توقعات جمعية، عيونه تخترقك كما لو أنها تقدر على قراءة أفكارك. لن تجد على وجه الكيان أي ملامح تذكرك بأي شخصٍ لأن هويته ليست فردية، فهو المجتمع بأكمله وفوقه طموحك الشخصية الميتة. ربما كل ما يظهر في بالك يتقمص وجه آخر شخصٍ تخشى معرفته بتقصيرك المجتمعي. ضحايا جرائم السمعة يلمحون ملامح الأخ أو الأب على ذلك الوجه. طالب التوجيهي يرى وجه الأقارب. قِس على ذلك أي نوعٍ من التقصير، مثل ذاك المفكر الخائف من خذلان أساتذته أصحاب الهالات السوداء أو من الإقرار بأنه لا يعرف معلومةً ما وأن العوام الذي يترفّع عنهم لم يعودوا عوام. لنعط الكيان أجنحة صناعية تشير إلى السعار الصناعي واحتقار المجتمع العابد للمادة لأي شخصٍ لا يركض على عجلة الهامستر الوظيفية. ونشير بذلك إلى تضخم مركزية السمعة مع مواقع التواصل الاجتماعي السامحة لخلق صورة افتراضية عن شخصيتك تسمح لك بإرضاء ذاك المجتمع. مركزية السمعة ليست حكراً على المحافظين فهي كامنة في عقلية المخالف أيضاً، كل ما في الأمر هو اختلاف حجم المجتمع الذي يسعى المخالفون إرضاءه.

تخيل الكيان بأقبح صورة ممكنة، والآن أدرك أن من قباحاته اللافتة هي أن تلك الأعين التي تحدق بغيرك من أبناء مجتمعك، هي عيناك أنت تحدّق بغيرك، وما لم نغض الطرف فأنا وأنت أجزاء من هذا المسخ.

لنسمي هذا الكيان "عاريائيل" دمجاً بين كلمة العار وبين الفعل القبيح المقابل من رياء، وسجعاً مع عزرائيل. كيف لنا أن نواجه هذا الكيان وأن نسحقه؟ هل هذا ممكن؟ هل هو مثل الملائكة في عالمٍ فوقي لا حول لنا به أم هو ببشريته مثلنا ولنا عليه من السلطان ما له علينا؟ أترك هذه الأسئلة للقارئ آخذاً الخطوة الأولى متخطياً مركزية السمعة التي تحكمني بأن أظهر بمظهر البطل القادر على كشف ضعف الخطر المحدق بنا. لا أعلم كيف نواجهه وما هي أصناف الشجاعة التي ينصحنا بها السيد تيليك لنحارب عاريائيل.
لكنني أدرك أن هزيمته لن تأتِ بمحاولات فردية، أدعو القارئ لأن يساعدني في حل هذه المعضلة الرمزية وأن يعيد نظره في الكثير من التعاملات المجتمعية من حوله أو من عنده مع إبقاء ما قرأه عن مركزية السمعة في البال. وأن يحاول أي مفكر أو مثقف قرأ كل هذا الكلام تفادي الإغراء النرجسي لتغذية سمعته دون استحقاق كما أدعو أي قارئ لأن يتشجع ويحطم التابوهات الفكرية والمجتمعية دون أن يكثر من اكتراثه بسمعته أمام أعين ثقافة مهزومة بائسة يائسة.